اللغة والسياسة من منظور فلسفة الفعل عند باولو فيرنو

د. حمدي عبد الحميد محمد الشريف
أستاذ الفلسفة السياسية المساعد بكلية الآداب
ووكيل (كلية الدراسات العليا والبحوث البيئية) بجامعة سوهاج

الملخص:

يتناول هذا البحث إسهام «باولو فيرنو» Paolo Virno (١٩٥٢-...؟) في الكشف عن الدلالات السياسية للغة انطلاقًا من أن اللغة تعبِّر عن شروط الإمكانية التي تتحقق فيها خبراتنا، من وجهة نظر متسامية وبيولوجية في آن واحد. وفي ضوء هذا ينظر فيرنو إليها بوصفها «فعلًا» يكشف عن نفسه ليصبح ممارسةً سياسيةً في جوهرها تتوسط بين الثوابت البيولوجية والمحددات التاريخية. وهكذا وبالنظر إلى تفسيره للغة وعلاقتها بالطبيعة الإنسانية، يحاول البحث اكتشاف الدور الذي تلعبه اللغة في تشكيل رؤيتنا للعالم وكيف تؤثر المشكلات الفلسفية المتعلقة بطبيعة اللغة على مواقفنا واتجاهاتنا الأخلاقية والسياسية. وينقسم البحث إلى ستة محاور: يعرض الأول لأبعاد فلسفة فيرنو السياسية، ويركز الثاني على ماهية اللغة، والثالث على العلاقة المترابطة والمتشابكة للغة بالسياسة، ويكشف الرابع عن أفعال الكلام كممارسة سياسية، ويتناول الخامس معالم الطريق نحو السياسة المثالية، ويقدم القسم السادس رؤية تقييمية لفلسفة فيرنو في ضوء علاقة اللغة بالمسؤوليات الأخلاقية والسياسية.

الكلمات المفتاحية: اللغة بوصفها ملكة، السياسة، الفعل، التحرر.

(ISSN: 2536 - 9555)

Language and Politics from the Perspective of Paolo Virno's Philosophy of Action

Dr. Hamdi Abdelhamied Mohamed Mohamed Alsharif
Assistant Professor of Political Philosophy
Faculty of Arts, and Vice Dean of the (Faculty of Graduate Studies and Environmental Research), Sohag University

Abstract:

This research deals with Paolo Virno's contribution in revealing the political connotations of language, based on the fact that language expresses the conditions of possibility in which our experiences are realized, from a transcendental and a biological point of view. Virno considers language as an "act" reveals itself to become an intrinsically political practice mediating between biological invariants and historical determinations. Given his understanding of language and its relationship to human nature, the research tries to discover the role that language plays in the formation of our view on the world and how philosophical problems related to the nature of language affect and inform our moral and political attitudes and positions. The research is divided into six sections: The first presents the dimensions of Virno's political philosophy, the second focuses on the essence of language, the third focuses on the conjugative relationship between language and politics, the fourth reveals speech acts as a political practice, the fifth deals with the features of the road towards the ideal politics, and the sixth section presents an evaluative view of Virno's philosophy in terms of the the relationship between language and moral and political responsibilities.

Keywords: Langugae as Faculty, Politics, Action, Liberation.

- **مقدمة**

تشكِّل اللغة الإمكانية الأساسية للولوج إلى عالم المعرفة، وهي أداة الإدراك والوعي، واكتشاف ماهية العلاقة بين الإنسان وما يحيط به من أشياء. وعلاوة على هذا، فإنها أداة لفهم وتفسير الوجود الإنساني ذاته، وهي بذلك وسيلة البشر للتعبير عن وجدانهم ومشاعرهم وآمالهم وآلامهم وصراعاتهم وطموحاتهم، كما تمثل أخيرًا الوعاء الذي تنصب فيه تأملاتهم الفكرية وتجسد مواقفهم الأخلاقية ونضالاتهم السياسية والاجتماعية.

ومن هذا المنظور، تمثل اللغة تمثل الأساس المشترك الذي ينطلق منه أي فيلسوف في تشكيل مواقفه وطرح أفكاره ورؤاه، وبالتالي لا يمكن فهم مواقفه كما لا يمكن تحليل خطابه السياسي دون الوقوف على تصوره للغة. وقد أهتم العديد من الفلاسفة المعاصرين بمسألة علاقة اللغة بالسياسة، ولعل الفيلسوف الإيطالي «باولو فيرنو» (Paolo Virno) (١٩٥٢-...؟) يأتي على رأس هؤلاء، إضافة إلى «حنَّه أرندت» (Hannah Arendt) (١٩٠٦-١٩٧٥) و«ميشيل فوكو» (Michel Foucault) (١٩٢٦-١٩٨٤) و«نعوم تشومسكي» (Noam Chomsky) (١٩٢٨-...؟)- على سبيل المثال لا الحصر.

ويُعَدُّ فيرنو واحدًا من أكثر المفكرين الماركسيين راديكالية ووضوحًا في الفكر السياسي الإيطالي، وهو من المؤسسين لحركة النضال العمالية العالمية في سبعينيات القرن العشرين. وتتركز اهتماماته الفلسفية- كما تكشف عنها مجرد نظرة عابرة إلى أهم كتبه- على عدد من الموضوعات التي ترتبط وتتشابك وتتداخل بين ميادين مختلفة أهمها اللغة والسياسة، بحيث يمكن القول إن ثمة مزج- أو بالأحرى تداخل- من جانبه بين هاتين الفعاليتين من الفعاليات الحضارية الإنسانية، مسقطًا الحدود المصطنعة بينهما والتي طالما ظلت عائقًا دون مد جسور التواصل بينهما، ومحاولًا تأسيس بنية دقيقة ومتماسكة يمكن في ضوئها تفسير العلاقة المترابطة بينهما انطلاقًا من منظور «فينومينولوجي» Phenomenological وبرؤية أنثروبولوجية واضحة.

(ISSN: 2536 - 9555)

وفي ضوء هذا، انطلق فيرنو في طرح ما يسميه بالنظرية السياسية للغة، والتي يحاول من خلالها أن يكشف عن التقاطعات والعلاقات المتشابكة بين اللغة والسياسة في ضوء فلسفة الفعل.

- **أهمية البحث**.

تتضح أهمية البحث من كونه محاولة نقدية لتحليل الأبعاد السياسية للغة في فلسفة فيرنو، والكشف عن الإمكانات التقدمية التي يمكن أن تقدمها. ومن ناحية أخرى، تكمن أهمية البحث في أنه أول دراسة باللغة العربية– في حدود عِلْمي– حول مسألة العلاقة بين اللغة والسياسية عند فيرنو؛ إذ لا توجد أي دراسة أو رسالة جامعية تسْبِق دراستي هذه، أما بالنسبة للدراسات الأجنبية، فهناك بعض الدراسات التي تدور حول فلسفة فيرنو السياسية بصفة عامة وتصوره للغة والسياسة بصفة خاصة، وسيَرِد ذكرها في ثَبْتِ المصادر والمراجع.

- **إشكالية البحث**.

بالنسبة لإشكالية البحث، فتتضح من خلال عدة تساؤلات أهمها:

١. هل تؤثر اللغة على السياسة والعكس؟ وماذا يعني فيرنو (بالفعل)؟ وماذا عن طبيعة أفعال اللغة؟
٢. ما الفرضية التي ينطلق منها فيرنو في معالجته لإشكالية علاقة اللغة بالسياسة؟
٣. ما المرجعيات الفلسفية التي اعتمد عليها فيرنو في فلسفته في اللغة؟
٤. هل أتفق فيرنو مع «حنَّه أرندت» في رؤيتها للسياسة بوصفها المجال المستقل الوحيد للفعل الذي يتميّز بالقدرة على الإبداع؟ وهل ساير التصورات الحديثة للدولة عند هوبز وغيره من منظري السياسة الحديثة؟
٥. هل أثرت مواقف فيرنو الثورية، خاصة منذ السبعينيات إلى أوائل الثمانينيات، على آرائه حول اللغة؟
٦. ماذا عن موقف فيرنو من المفاهيم والتصورات الماركسية التقليدية؟
٧. كيف يمكننا تقييم مجمل إسهام فيرنو في الفلسفة السياسية؟

- **منهج البحث**.

اعتمدتُ في هذا البحث على **المنهج التحليلي** في عرض آراء فيرنو حول اللغة والسياسة والمشكلات المرتبطة بهما، وتحديد معاني المصطلحات والمفاهيم التي يستخدمها، كما اعتمدتُ على **المنهج التاريخي** من حيث ردُّ الأفكار والمصطلحات إلى أصولها الأولى، إلى جانب **المنهج المُقَارَن** من حيث المُقَارَنة بين موقفه من مسألة علاقة اللغة بالسياسة ومواقف غيره من الفلاسفة، وأخيرًا يأتي دَور **المنهج النقدي** بغرض الوقوف على ما تنطوي عليه آراؤه من إيجابياتٍ وسلبياتٍ، وتوضيح مواطن الأصالة والطرافة والتقليد فيها.

- - **محتويات البحث**.

ينقسم البحث إلى ستة محاور أساسية على النحو الآتي:

المحور الأول: المسار الفكري لفلسفة فيرنو السياسية.

المحور الثاني: ملكة اللغة: من الفعل الأدائي إلى تفسير المتسامي.

المحور الثالث: الانطولوجيا السياسية (الأبعاد السياسية للغة).

المحور الرابع: أفعال اللغة كممارسة سياسية في جوهرها تتوسط بين الثوابت البيولوجية والمحددات التاريخية.

المحور الخامس: الآفاق المستقبلية ومعالم الطريق نحو الفعل السياسي.

المحور السادس: نقد وتقييم فلسفة فيرنو السياسية.

وبعد هذه الإطلالة على فكرة البحث، وإشكاليته، ومنهجه، وأهم التساؤلات التي يسعى إلى الإجابة عنها، فإن التساؤل الذي يطرح نفسه: **كيف أثرت مواقف فيرنو الثورية منذ السبعينيات على مجمل آرائه حول اللغة والسياسة؟**

إن الإجابة عن هذا التساؤل تمثل جوهر مناقشتنا في المحور الأول.

(ISSN: 2536 - 9555)

المحور الأول
المسار الفكري لفلسفة فيرنو السياسية

ربما يكون من المفيد الكشف عن أهم العوامل التي دفعت فيرنو إلى التركيز على مسألة اللغة وعلاقتها بالسياسة، خاصة وأنه عاش- ولا يزال- حياة مليئة بالصراعات التي أثرت إلى حد كبير على كتاباته الفلسفية. ومن هنا نتساءل: من هو فيرنو؟ وما أبعاد فلسفته؟ وما المؤثرات التي جعلته يهتم بالقضايا والمشكلات الفلسفية حول اللغة؟

أولًا: حياة فيرنو ونضاله السياسي.

وُلد باولو فيرنو في مدينة نابولي عام ١٩٥٢، وهو ينتمي إلى جيل من الفلاسفة الإيطاليين والنقاد الثقافيين المشهود له بقدرته المميزة على فهم وتفسير ونقد المجتمعات الرأسمالية في عصر ما بعد الفوردية(*). وقد بدأت ممارساته في العمل السياسي مع مجموعة صغيرة من النشطاء البارزين المنخرطين في المشهد

(*) .«الرأسمالية ما بعد الفوردية» Post-Fordist Capitalism: هي النظام السائد للإنتاج والاستهلاك الاقتصادي الذي شهدته مؤخرًا معظم البلدان الصناعية الغربية. وهي تختلف عن «الفوردية» Fordism- نسبة إلى رجل الصناعة «هنري فورد» (Henry Ford) (١٨٦٣-١٩٤٧)- في أن ما بعد الفوردية تمثل مرحلة الانتقال من اقتصادٍ يتميّز بتوظيف طويل الأمد وأجر ثابت خاص بعمال المصانع (الفوردية) إلى نظام يتميّز بعلاقات عمل مرنة، وغير ثابتة؛ فهي مرنة لأن على العمال أن يتحركوا تكرارًا بين الأعمال والمنتجات والوظائف المتخصصة في ظل نمو عمليات العمل، ومجالاته، وتدفقاته المعتمدة على تقنيات المعلومات الجديدة وثورة الاتصالات والعمل الرقمي؛ وهي غير ثابتة لتركيزها على أنواع المستهلكين من جهة، وعدم وجود عقود تضمن وظيفة مستقرة وطويلة الأمد. (هارت، هارت، وأنطونيو نيغري: **الجمهور: الحرب والديمقراطية في عصر الإمبراطورية**، ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠١٥، ص. ٢٠٧). وبوجه عام، تشير ما بعد الفوردية إلى الرأسمالية المتأخرة Late Capitalism، أو رأسمالية المجتمعات ما بعد الصناعية Post-Industrial في عصر ما بعد الحداثة.

السياسي والثقافي الإيطالي منذ منتصف السبعينيات، في ما أصبحوا يعرفون على المستوى الدولي بأنهم أصحاب «الحركة ما بعد العمالية» Post-Workerism (Post-Operaismo)، والتي ظهرت في أواخر الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، وتضم أشخاصًا من مختلف المراكز الجغرافية والفكرية الذين يعملون في العمل السياسي في عدد من المدن الصناعية خلال ما يُطلق عليه اسم «حركة ١٩٦٨(*)»، وهي فترة امتدت إلى أواخر السبعينيات(١).

ولعل أهم ما يميّز فيرنو نشاطه ونضاله المستمر منذ أن كان طالبًا جامعيًا، حيث ارتبط بالحركة الطلابية في جنوة ثُم مع منظمة «القوة العمالية» (Potere Operaio) (من عام ١٩٦٨ حتى حلها عام ١٩٧٣)، وهي مجموعة سياسية أسسها بعض الأفراد ممن رفضوا الانضمام إلى الحزب الشيوعي الإيطالي(٢). وأثناء دراسته للفلسفة في روما، نشط في الحركة اليسارية في السبعينيات، والتي كانت تستهدف بناء مجتمع بديل يقوم على العدالة، والدفاع عن حقوق العمال الجدد غير المهرة والمتنقلين، خاصة وأن نضالات هؤلاء العمال كانت تتم خارج النقابات. وكان فيرنو من بين مؤسسي الفرع الروماني لمنظمة «القوة العمالية»– وهي حركة تأسست في بداية الستينيات ومن بين رموزها: «ماريو ترونتي» (Mario Tronti) (١٩٣١–...؟) و«أنطونيو نيجري» (Antonio Negri) (١٩٣٣–...؟) و«أدريانو سوفري» (Adriano Sofri) (١٩٤٢–..؟) و«ماوريتسيو لاتزاراتو» (Maurizio Lazzarato) (١٩٥٥–...؟). ولم تكن مشاركته في هذه الحركة من أجل الثورة ضد الفقر، أو الديكتاتورية، بل اتخذت

(*) الإشارة هنا إلى احتجاج الشباب حول العالم على الهياكل الاجتماعية السائدة والظلم المتفشي. ومن هنا أصبح عام ١٩٦٨ مرادفًا لأكبر حركة احتجاج عالمية في القرن العشرين، سواء في باريس أو سان فرانسيسكو أو طوكيو أو ساو باولو أو برلين أو لندن.

(1) Mecchia, Giuseppina: "**Paolo Virno: From the Language of Labor to the Labor of Language**", *Annali d'Italianistica*, Vol. 32, 2014, PP. 491-492.

(2) Henninger, Max: "**The Tradition of Critical Thought, Idle Talk and Curiosity, Language on Stage (Three Essays by Paolo Virno)**" *Forum Italicum*, Vol. 40, No. 1, 2006, P. 147.

(ISSN: 2536 - 9555)

شكل صراع جذري يستهدف إلغاء هذا الشكل الحديث من البربرية الذي أسماه فيرنو «العمل المأجور(*)»، والذي يقوم على سيطرة أرباب العمل(٣).

وقد أهتم أعلام هذه الحركة بالأبعاد السياسية والإمكانات الثورية للطبقات العاملة الجديدة في المراكز الحضرية، مع دعوة أصحابها إلى ضرورة إعادة التفكير في المفاهيم القديمة وكذلك في الهيمنة البيروقراطية للحزب الشيوعي الإيطالي(٤). وتقوم الحركة على ثلاثة أسس نظرية: (١) التأكيد على أولوية نضال العمال في ظل تطور رأس المال؛ (٢) دراسة التركيب المتغيّر للطبقات العاملة الجديدة بوصفه أساسًا لفهم وتفسير الأشكال المستحدثة من التنظيم والفعل من الناحية السياسية؛ (٣) توصيف ماركس «للعقل العام» (General Intellect) بوصفه قوة إنتاج حاسمة (وهو مزيج يجمع بين الخبرة التكنولوجية والفكر الاجتماعي) وكشكل من السلطة العمالية يهدِّد بتدمير أسس تنظيم الإنتاج لاستخلاص فائض القيمة(٥).

وعلى الرغم من صعوبة تفسير تاريخ الحركة اليسارية الإيطالية، فإن الأصول النظرية لحركة «القوة العمالية» موجودة في أفكار ماركس الشاب حول الاقتصاد السياسي ورؤيته للعامل في الرأسمالية بوصفه موضوعًا تاريخيًا، وذلك كما وردت في المجلد الأول من كتاب «رأس المال» وفي المخطوطات التي نُشرت بعد وفاته باسم «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي». ومن ناحية أخرى، فبالنسبة لهذه الحركة، فإن ثمة قوة سياسية أخرى أكثر أهمية وهي الفئة الطلابية، التي رغم أنها

(*) «العمل المأجور»: هو ذلك النظام الاستغلالي من العمل الذي رفضه ماركس لأن العمال في ظله يقومون ببيع قوة عملهم للرأسماليين أو أصحاب المصانع في إطار عقد عمل رسمي، وبحيث يستولي صاحب رأس المال على منتج العمل وبالتالي على فائض القيمة.

(3) Joseph, Branden W.: "**Interview with Paolo Virno**", Trans.: Alessia Ricciardi, *Grey Room*, No. 21, (Fall, 2005), P. 27.

(4) Mecchia, Giuseppina: "**Paolo Virno: From the Language of Labor to the Labor of Language**", P. 492.

(٥) بيراردي، فرانكو (بيفو): **الروح في العمل من الاستلاب إلى الاستقلال الذاتي**، ترجمة: أحمد حسان، القاهرة: أقلام عربية للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠، ص ص. ٢٠-٢١.

لا تزال مُهمَّشة في عمليات تراكم رأس المال، إلا أنه كان من المفترض أن تندمج مع الطبقة العاملة وتدعم نضالاتها. ومن هنا عوّل أنصار هذه الحركة- ربما بتأثير من «هربرت ماركيوز» (Herbert Marcuse) (١٨٩٨-١٩٧٩)- على الطلاب بوصفهم قوة سياسية غير طبقية وغير متحيّزة يمكن أن تشكل طليعة في الثورة ضد الرأسمالية وبوصفها خصمًا محرومًا من الحقوق الاقتصادية والامتيازات السياسية. وعلى صعيد الممارسة العملية، فإن الطلاب هم الذين اندمجوا في النضالات العمالية والحركة الاحتجاجية لعام ١٩٦٩، وهو ما عزّز الإمكانية الراديكالية للتغيير خارج النقابات والاتحادات العمالية[٦].

وعندما تم حل هذه الحركة عام ١٩٧٣، عاد بعض مؤسسيها، مثل «ماريو ترونتي» إلى الحزب الشيوعي. غير أن فيرنو آثر المضي في تأسيس حركة تجمع بين العمال والطلاب تحت مسمى منظمة «الحكم الذاتي العمالي» (Autonomia Operaia) عام ١٩٧٣. وحاول آخرون الدخول في معترك السياسة البرلمانية والمحلية من خلال إنشاء مجموعات شبيهة بالأحزاب مثل حزب «النضال المستمر» (Lotta Continua) وحزب «الديمقراطية البروليتارية» (Democrazia Propetaria) عام ١٩٧٥. ولا يزال آخرون من حركة «القوة العمالية» يشاركون في نشاط سري. وقد واصل فيرنو نشاطه في حركة «الحكم الذاتي العمالي» إلى أن أدى ردة الفعل من جانب الدولة ضد المعارضة المزعزِعة لاستقرار الأوضاع بشكل متزايد إلى إعلان الإغلاق الرمزي لهذه الفترة الاستثنائية من النضال السياسي[٧]. كما تم اعتقال وسجن جميع قادة هذه المنظمات في أبريل ١٩٧٩ ووُجهت إلى فيرنو عدة تهم منها الانتماء لحركة الألوية الحمراء، وهي منظمة يسارية تأسست عام ١٩٧٠ وتستند إلى الكفاح المسلح.

وقد نشط فيرنو في ميدان السياسة وقام في بداية حياته بتنظيم مجموعة من الندوات لعمال المصانع في ميلانو، في شكل حوار يهدف إلى تشكيل موضوع

---

(6) Mecchia, Giuseppina: "**Paolo Virno: From the Language of Labor to the Labor of Language**", P. 492.

(7) Ibid.

(ISSN: 2536 - 9555)

سياسي موحد عن لغة الخطاب والفعل السياسي. وفي الوقت نفسه، تم التعبير عن هذه الذاتية في لغة خطابهم الجمعي وترسخت لدى هيئة تحرير صحيفة «العاصمة» (Metropoli)، التي كان فيرنو أحد كُتَّابها[٨]. وفي هذا الصدّد يقرر فيرنو أن انشغاله بالفلسفة استمر بصفة دائمة طوال حياته، وقد بذل جهدًا كبيرًا لتأسيس مذهب مادي غير اختزالي (Nonreductionist Materialism) واسع المجال بحيث يكون قادرًا على تفسير كل ما يفعله ويفكر فيه ويرغب فيه «الحيوان اللغوي» (ويقصد به الإنسان)[٩].

وعندما تم قمع الحركة اليسارية في أواخر السبعينيات، ظل فيرنو في نواحٍ عديدة واحدًا من أقوى المؤيدين للتقليد الماركسي وأكثرهم إخلاصًا له[١٠]. ولم يكتفِ بتوجيه انتقادات للرأسمالية ما بعد الفوردية، وهو الطريق الذي أتبعه زملاؤه من أبناء جيله، وإنما حاول أيضًا تقديم بديل لها. فمع تراجع دور اليسار الثوري الأوروبي في بداية الثمانينيات، أصبحت إعادة التفكير العميقة في الظروف والملابسات المحيطة بنشاطهم السياسي أمرًا لا مفر منه، لكن لم يتفاعل الجميع بالطريقة نفسها. ومن هنا حاول فيرنو أن يجد الاستقرار الوجودي لاستعادة قدرته على الكتابة والتأليف في الفلسفة واستكمال مساره الفكري الذي بدأه، في حين أن بعض معاصريه اتخذوا خيارات مختلفة، حيث شرعوا في توجيه النقد النظري للرأسمالية، وإعادة النظر في أسباب هزيمتهم الفكرية والتاريخية كنقطة انطلاق **لإعادة التفكير العميق في وظيفة اللغة كوسيلة للمقاومة**، وعلى سبيل المثال، نجد «كريستيان مارازي» (Christian Marazzi) (١٩٥١–...؟)– الذي كان قريبًا من نيجري عندما كان طالبًا في العلوم السياسية في جامعة بادوفا Padova– استمر في الاشتغال بمهنة الاقتصاد السياسي والنظرية الاجتماعية.

---

(8) Ibid, P. 493.
(9) Joseph, Branden W.: "**Interview with Paolo Virno**", P. 27.
(10) Bianchi, Pietro: **The Word and the Flesh: Postworkerism and the Biopolitics of Language in Paolo Virno and Christian Marazzi**, in: *Italian Thought Today (Bio-economy, Human Nature, Christianity)*,ed. Lorenzo Chiesa, New York: Routledge, 2014, P. 39.

أما «فرانكو بيراردي» (Franco Berardi) (١٩٤٩-...؟)، وهو فيلسوف شيوعي وهو نفسه خريج فلسفة، فبعد أن ترك حركة «القوة العمالية» وأسس المحطة الإذاعية (Radio Alice)، أصبح عالمًا في وسائل الإعلام في عصر ما بعد الحداثة، وبحلول أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، أنشأ شبكة تلفزيونية مستقلة[١١]. ومن هنا تحول «بيراردي» إلى دراسة الاتجاهات الفكرية في عصر ما بعد الحداثة وربطها بتحليله للحركة العمالية، وقد أكد هذا التحول بأنه في كتابات المتأخرة آثر فهم الديناميات الاجتماعية والسيكولوجية الجديدة التي تلت الثورة الإدراكية (المعرفية) في التسعينيات، في ضوء ربط الحركة العمالية بالمدرسة الفلسفية الفرنسية المُسماة «ما بعد البنيوية[*]» (Post-structuralism) بصفة خاصة، وبتيارات ما بعد الحداثة بصفة عامة[١٢].

---

(11) Mecchia, Giuseppina: "**Paolo Virno: From the Language of Labor to the Labor of Language**", PP. 493-494.

(*) بينما تذهب البنيوية إلى أن الحقيقة تكمن «داخل» النص، تؤكد ما بعد البنيوية على التفاعل بين القارئ والنص بوصفه عملية إنتاجية. ومن هنا **إذا كان البنيويون يرون أن الإنسان لا يملك وسيلة للوصول إلى الحقيقة إلا عبر اللغة وبنيتها وليس العكس**، فإن **ما بعد البنيويين يرون أنه من المستحيل الوصول إلى الحقيقة، حتى عبر اللغة، لأن الدال الكلامي مائع ويسبح دائمًا بعيدًا ومتحررًا عن المدلول.** فالبنيوية عند دي سوسير تؤكد أن كل دال يكتسب قيمته الدلالية فقط بحكم موقعه التفاضلي داخل بنية اللغة، أما ما بعد البنيويون فيعززون تفسيرهم للعلاقات بين الدلالات من خلال اهتمامات نيتشه بالسلطة وفكرة فرويد حول الأصل «اللاواعي»، وبهذا يرفضون وجود وحدة العلامة المستقرة ويشككون في إمكانية وجود أي لغة وصفية وتحليلية، وبمعنى آخر لا يعتقدون أن المؤلفين هم المرجعية لمعنى وحقيقة ما يكتبونه، لكنهم يزعمون بدلاً من هذا أن القراءة هي أداء نشط يخلق التفسيرات وليست استهلاكًا سلبيًا للمنتج. ومن هنا فإن اللغة- وفعل القراءة بوجه خاص- تعيد تشكيل وخلق معان جديدة ضد المعنى الظاهر، ولاسيما أن النص يظل قابلًا للقراءة المفتوحة بعد موت المؤلف. وهكذا ترفض ما بعد البنيوية أن تكون للكلمات معاني ثابتة وتعادي أي نظام موحد أو أي محاولة لبناء النظام يتأسس على وحدة البنية والمعنى. وفي ما يتعلق بالفكر فإنه يتشكل من خلال الرموز والأعراف والألعاب اللغوية

(ISSN: 2536 - 9555)

ويحدثنا «ماوريتسيو لاتزاراتو» عن طبيعة هذا التحول في الدوائر اليسارية من الدفاع عن حقوق الطبقة العاملة إلى الاندماج شيئًا فشيئًا مع رأسمالية ما بعد الحداثة، حيث يقرر بأن معظم الأكاديميين قبلوا النظام الجديد مع القليل من المقاومة، ولم يكن هذا الأمر يتعلق فقط بتوجيه من السلطة العليا في الدولة، بل إن الأكاديميين أنفسهم قد أصبحوا، مثل العمال، «ذوات نشطة» في النظام الرأسمالي الجديد. وعن السبب في هذا، يقول:

«إن إعادة هيكلة المصانع الكبرى التي تمت خلال العشرين عامًا الماضية (الستينيات والسبعينيات) أدت إلى مفارقة غريبة. فقد تم بناء النماذج المختلفة لرأسمالية ما بعد الحداثة على هزيمة نضال العمال وكفاحهم وعلى الاعتراف بمركزية العمل الحي (القائم على المعرفة بشكل متزايد) داخل الإنتاج. وفي الشركات الكبيرة التي أُعيدت هيكلتها، فإن عمل الطبقة العاملة كان يشتمل على نحو متزايد، وعلى مستويات مختلفة، على القدرة على الاختيار من بين البدائل المختلفة، وبالتالي على درجة من المسؤولية في ما يتعلق باتخاذ القرار. ومن ناحية أخرى، فإن ما بدأت تقوم به تقنيات الإدارة الرأسمالية الجديدة هو (أن تصبح روح العامل جزءًا من المصنع)، بحيث تصبح شخصيته وذاتيته قابلتين للتنظيم والقيادة. وهذا التحول إلى عمل يقوم على السيطرة، وتقنيات نشر المعلومات، والقدرة على اتخاذ القرار إنما يتضمن استثمار الذاتية وتكييفها وتطويعها لصالح نظام الإدارة الرأسمالية، وهو ما يؤثر على العمال بطرق مختلفة وفقًا لمواقعهم داخل التسلسل الهرمي للمصنع. ومن ثَمَّ تحول العمل في ظل الرأسمالية إلى قدرة على تنشيط وإدارة التعاون الإنتاجي. وهكذا، أصبح العمال

والخطابات التي تشكل نظامًا ثقافيًا معينًا. ومن بين أعلامها: جيل دولوز، وفيليكس غواتاري، وجان فرانسوا ليوتار، وميشيل فوكو، وجاك دريدا. وتشترك ما بعد البنيوية في العديد من السمات المشتركة مع ما بعد الحداثة.

(Bunnin, Nicholas and Jiyuan Yu: **The Blackwell Dictionary of Western Philosophy**, Oxford: Blackwell Publishing Ltd, 2004, PP. 541-542).

(١٢) بيراردي، فرانكو: **الروح في العمل من الاستلاب إلى الاستقلال الذاتي**، ص. ٧.

(ذوات خاضعة نشطة) Active Subjects في وضعية لتنسيق وظائف الإنتاج المختلفة، بدلًا من خضوعهم لها بقدر بسيط ومباشر من السيطرة. وفي نهاية المطاف، وصلنا إلى نقطة تصبح فيها عملية التعلم الجماعي هي جوهر الإنتاجية، لأن الأمر لم يَعُدْ يرتبط بإيجاد طرق مختلفة لتنظيم المهمات الوظيفية الموجودة بالفعل، بل أصبح يتعلق بالبحث عن وظائف جديدة»[١٣].

على هذا النحو، يفسّر «لاتزاراتو» طبيعة الاهتمام بالموضوعات الاجتماعية في عصر الرأسمالية اليوم، التي أصبح خطابها ذا طبيعة سلطوية تستند إلى أن تكون الوظائف قائمة على التعاون والتنسيق الجماعي، وتخضع لتقنيات المعلومات الجديدة. ومن الملاحظ أن مشكلة الذاتية وإطارها الجماعي، وتكوينها وتطورها، كل هذا قد عبّر عن نفسه في الصدام بين الطبقات الاجتماعية داخل تنظيمات العمل، وهذا راجع إلى الأبعاد والظروف الجديدة للصراع بين الطبقات الاجتماعية: إذ يحتاج الرأسمالي إلى إيجاد طريقة مباشرة للسيطرة على الطبيعة الذاتية للطبقة العاملة؛ وبالتالي يتحول وصف المهمات وتعريفها إلى وصف للطبيعة الذاتية نفسها. ومن هنا أصبح الشعار الجديد للمجتمعات الرأسمالية هو أننا يجب أن «نصبح ذوات خاضعة». كما أصبحت الإدارة التشاركية تخضع لتقنية القوة، وهي تقنية للتحكم في «العمليات الذاتية» والسيطرة عليها. وبما أنه لم يَعُدْ من الممكن حصر الذاتية في مهمات التنفيذ فقط، فقد أصبح من الضروري جعل الكفاءة في مجالات الإدارة والتواصل والإبداع متوافقة مع شروط «الإنتاج من أجل الإنتاج» (Production for Production's Sake). وهكذا فإن شعار «صيروا ذوات خاضعة»، بعيدًا عن إزالة التناقض بين التسلسل الهرمي والتعاون من ناحية، وبين الاستقلالية والقيادة من ناحية أخرى، يعيد في الواقع طرح التناقض على مستوى أعلى، لأنه يصطدم في الوقت ذاته بشخصية العامل الفرد[١٤].

---

(13) Lazzarato, Maurizio: "**Immaterial Labor**", in:P. Virno & M. Hardt (eds.), *Radical Thought in Italy: A Potential Politics*, Minneapolis, Minneapolis: University of Minnesota Press, 1996, PP. 133-134.

(14) Ibid, P. 134.

(ISSN: 2536 - 9555)

وإذا عدنا إلى فيرنو، سنجد أنه حُكم عليه في عام ١٩٨٢ بالسجن لمدة ١٢ عامًا، وقد قضى منها ثلاث سنوات، قبل أن يتم إسقاط جميع التهم الموجهة إليه وتبرئته في عام ١٩٨٧. ومن الملاحظ أن هناك استمرارية واضحة بين انخرطه في النشاط السياسي واهتماماته في الكتابة الأكاديمية. وعلى سبيل المثال، لا يمكن فهم كتاباته حول المذهب المادي كمجرد مساهمة في تطوير المفاهيم الفلسفية التي تركها ماركس دون أن يطورها إلى حد كبير (مثل مفهوم «العقل العام»)، بل كان متأثرًا فيه بالظروف التي مرت بها «الحركة ما بعد العمالية»، التي كان ينتمي إليها، والتي أكدت الأهمية المتزايدة للعمل الفكري واللغوي ضمن عملية تسعير الأصول الرأسمالية Capitalist Valorization[١٥].

وفي ضوء ما سبق يمكن أن نضع أيدينا على العوامل التي دفعت فيرنو إلى الاهتمام بدراسة مسألة اللغة. فخلال سنوات سجنه، تحول تفكيره نحو الفلسفة، ومزج الأفكار الماركسية مع تأملاته حول اللغة إضافة إلى تحليلاته لوسائل الإعلام من حيث صلتها بالمشكلات المتعلقة بالعمل في الرأسمالية ما بعد الصناعية[١٦]. ومن هنا بدأ في تطوير أفكاره وآرائه بعد فترة من النضال والنشاط السياسي، وفي ضوء إعادة النظر في المقولات والمفاهيم المرتبطة بالعالم التاريخي وعالم الخبرة السياسية. وبطريقة ما، وُلدت نظريته السياسية في اللغة من رحم هزيمة الحركات العمالية والطلابية منذ أواخر السبعينيات، وهي الحركات التي كان لها دور مهم في تشكيل آراءه الفلسفية وبناء مواقفه السياسية[١٧].

ثانيًا: إنتاجه الفكري والفلسفي.

إذا نظرنا إلى كتابات فيرنو سنجدها متعددة، وقد ظهر أول كتبه عام ١٩٨٦ تحت عنوان «فكرة الاتفاق والمذهب المادي»، وهو كتاب مهم وقد جعل منه واحدًا

(15) Henninger, Max: "**The Tradition of Critical Thought, Idle Talk and Curiosity, Language on Stage**, P. 147.

(16) Bardini, Thierry: "**On Multitude and Beyond: An Interview with Paolo Virno**", *Cultural Politics*, Trans.: Briankle G. Chang and Srinivas Lankala, Vol. 10, No. 2, (1 July 2014), PP. 206-207.

(17) Mecchia, Giuseppina: "**Paolo Virno: From the Language of Labor to the Labor of Language**", P. 494.

من أكثر المفكرين تأثيرًا في جيله، ويتضمن آراءه حول قضايا مثل «الخبرة»، و«التفرد» Uniqueness، وعلاقة الأخلاق باللغة، والمفهوم الماركسي عن «العقل العام». أما ثاني كتبه فجاء بعنوان: «عندما تصير الكلمة جسدًا: اللغة والطبيعة البشرية» (٢٠٠٣)، وهو من أهم كتبه، ويحاول فيه تأسيس نظرية سياسية في اللغة بحيث تقوم على مجموعة من الأسس الفلسفية، كما يطرح فيه فهمه لماهية اللغة وعلاقتها بالطبيعة الإنسانية. وبعد هذا نشر مجموعة من الكتب منها: «قواعد اللغة للجنس البشري» (٢٠٠٤)، و«الجنس البشري بين الابتكار والنفي» (٢٠٠٨)، و«مقالة عن النفي» (٢٠١٣)، و«وهم سبق الرؤية ونهاية التاريخ» (٢٠١٥)، وأخيرًا «فكرة العالم: العقل العام وجدوى الحياة» (٢٠٢٢).

ثالثًا: المرجعيات الفلسفية لآراء فيرنو حول اللغة.

متى توجهنا إلى المرجعيات الفلسفية التي استقى منها فيرنو أفكاره النظرية حول اللغة سنجد أن فيرنو يعتمد على العديد من المصادر وعلى رأسها «أرسطو» (Aristotle) (٣٨٤-٣٢٢ ق.م)، وخاصة كتابه «الأخلاق». ومن ناحية أخرى، فرغم كونه واحدًا من الفلاسفة الماركسيين، فإن هذا لم يمنعه الاستفادة من المصادر الأخرى غير الماركسية[١٨] خاصة فلاسفة التحليل مثل، «جوتلوب فريجه» (Gottlob Frege) (١٨٤٨-١٩٢٥) و«لودفيج فتجنشتين» (Ludwig Wittgenstein) (١٨٨٩-١٩٥١)، وفلاسفة الفينومينولوجيا مثل «إدموند هوسرل» (Edmund Husserl) (١٨٥٩-١٩٣٨). لكن فيرنو لم يعتمد على رؤى هؤلاء بهدف مسايرتهم، أو لكي يجعل من آرائه حول اللغة ذات صبغة تعددية، بل بغية تأسيس نظرية سياسية تنصب في المقام الأول على كون اللغة «ملكة للفعل»، في ضوء التحديات السياسية التي يواجهها الجنس البشري.

ومن المصادر التي ينطلق منها فيرنو كتابات «دي سوسير» (Ferdinand de Saussure) (١٨٥٧-١٩١٣)، التي اتجه في ضوئها إلى تعميق الرؤى الفكرية نحو دراسة اللغات دراسة وصفية انطلاقًا من أن اللغة ظاهرة اجتماعية، غير أن فيرنو لم يكتفِ بالدراسة الوصفية للغة بل أضاف إليها بعدًا فلسفيًا

(18) Bianchi, Pietro: **The Word and the Flesh**, P. 39.

(ISSN: 2536 - 9555)

معياريًا كما سيتضح لاحقًا. والأمر نفسه ينطبق على تأثر فيرنو بآراء «تشارلز بيرس» (Charles S.Peirce) (١٨٣٩-١٩١٤) حول اللغة وأنظمة العلامات الأخرى.

كذلك فمن أهم المرجعيات التي شكّلت إطار تفكير فيرنو: نظريات الفلاسفة الماركسيين وعلى رأسهم «ألتوسير» (Louis Althusser) (١٩١٨-١٩٩٠)، مؤسس «الماركسية البنيوية*» (Structural Marxism). وأخيرًا مثلت النقاشات التي كانت دائرة بين «ميشيل فوكو» (Michel Foucault) (١٩٢٦-١٩٨٤) و«نعوم تشومسكي» (Noam Chomsky) (١٩٢٨-...؟) نقطة ارتكاز أساسية بالنسبة لفيرنو في تشكيل آراءه وإن كان قد اتخذ موقفًا نقديًا من آراء الفيلسوفين.

وأخيرًا استفاد فيرنو من آراء «هيدجر» (Martin Heidegger) (١٨٨٩-١٩٧٦) حول اللغة وتحليله لمفهوم «الدازاين» Dasein (أو الوجود)، كما تأثر بتيار «الأنثروبولوجيا الفلسفية» الألمانية عند «أرنولد جيلين» (Arnold Gelen) و«هيلموت بليسنر» (Helmut Plessner)، وتأثر كذلك بـ«جيل دولوز» Gilles Deleuze (١٩٢٥-١٩٩٥) خاصة آراءه حول السلطة، والرغبة، وأجهزة الدولة القمعية[١٩].

وفي ضوء ما سبق، نلاحظ أن فيرنو يستهدف من توسيع مرجعياته لدراسة اللغة إعادة تحديد العلاقة بين التاريخ والطبيعة الإنسانية المتمحورة حول اللغة

(*) «الماركسية البنيوية» (Structural Marxism): هي منهج في الفلسفة يدمج الماركسية بالبنيوية، وقد ارتبط ظهورها بالفيلسوف الفرنسي ألتوسير في كتاباته المبكرة قبل أن يرفضها في عام ١٩٦٧ويذهب إلى حد إدانتها بوصفها أيديولوجية. وتخالف الماركسية البنيوية وجهة النظر الذرائعية حول الدولة انطلاقًا من كونها تبريرًا لامتيازات الطبقة الحاكمة ووسيلة لإعادة إنتاج المجتمع الرأسمالي.

(Montag, Warren: **Althusser and His Contemporaries**, Durham and London: Duke University Press, 2013, P. 16).

(**19**) Penzin, Alexei: "**The Soviets of the Multitude: On Collectivity and Collective Work: An Interview with Paolo Virno**", *Mediations*, Vol. 25, No. 1 (Fall 2010), P. 81.

كملكة أو قدرة أساسية. وعلى المستوى السياسي، فإن هذا الموقف في نظر فيرنو يمكّننا من البناء المفاهيمي لموضوع لغوي جماعي جديد، يسميه «الجمهور» Multitude (أو «الجنس البشري»). وفي حين أن هذا الموضوع يرتبط في أغلب الأحيان بمسائل مثل الإمبراطورية والتعددية والكومنولث، فإن فيرنو يربطه بشكل واضح بفلسفة اللغة[٢٠].

ومن ناحية أخرى، إذا كان «الفعل» مقولة أساسية في التاريخ، فإنه بذلك أحد المفاهيم الأساسية في عالم الحياة اليومية، ويُشكِّل بذلك بُعدًا من أبعاد العالم الإنساني، مثلما ينزع الإنسان دائمًا إلى مقارنة «**ما يفعله**» مع «**ما يحدث**» فعلًا. وبالتالي يؤدي الفعل دورًا رئيسيًا في ضوء الطريقة التي ينظر الإنسان من خلالها إلى ذاته وإلى الآخرين، كما يؤدي دورًا مهمًا بالنسبة للقيمة التي يعزوها الإنسان إلى وجوده وحياته[٢١].

ومن هذا المنطلق، فإن اهتمام فيرنو بالفعل يمثل جزءًا من تيار أساسي في الفلسفة المعاصرة، وهو تيار «فلسفة الفعل[٢٢]» (Philosophy of Action)، وبعبارة أخرى فإن تركيزه على الفعل، كخاصية مميّزة للإنسان ويؤكد من خلالها وجوده الإنساني، لا ينفصل عن هذا التيار الذي تبلورت ملامحه وأبعاده بشكل

---

(20) Mecchia, Giuseppina: "**Paolo Virno: From the Language of Labor to the Labor of Language**", P. 495.

(21) Moya, Carlos J.: **The Philosophy of Action: An Introduction**, Cambridge: Polity Press, 1990, P. 2.

(٢٢) تهتم «فلسفة الفعل» بدراسة صيغة الوجود التامة للإنسان من خلال الانتقال المتبادل بين صعيدي النظر والعمل؛ أو النظرية والممارسة، ومن ثَمَّ فهي نشاط يضطلع بالصيرورة والتغيّر، وهي لا ترتد إلى أي فلسفة سياسية ولا إلى أنثروبولوجيا فلسفية، بل هي فلسفة عامة بالمعنى الذي تكون به الفلسفة خطابًا مفتوحًا حول الطبيعة الإنسانية، وحول صيرورة أفعال التفرد التي تُعبِّر عن جملة مراحل الكينونة، وخاصة الإنسان الذي يدخل بفعله في العالم ويشكل فعله بُعدًا من أبعاد العالم. (العيادي، عبد العزيز: **فلسفة الفعل**، صفاقس: دار نهى للطباعة والنشر، ٢٠٠٧، ص. ٩).

(ISSN: 2536 - 9555)

متكامل في القرن العشرين، سواء عند الوجوديين أو الماركسيين أو البراجماتيين. وتعني فلسفة الفعل بتحليل طبيعة الفعل الإنساني ومشكلاته، وتنطلق من تمييز جوهري بين «الأفعال» (Actions) من جانب، و«الحوادث» (Events) من جانب آخر[٢٣].

وقد تطور هذا التيار في الفلسفة الغربية بفضل اهتمام العديد من الاتجاهات الفلسفية بدراسة الواقع ونقده ومحاولة تغييره أكثر من الاهتمام بالتأمل النظري العقلاني أو بالتصورات الميتافيزيقية الخالصة، حتى أن «جان بول سارتر» (Jean-Paul Sartre) تحدث عن كوجيتو جديد انطلاقًا من فلسفته التي تهتم بماهية الإنسان وأفعاله، وتقول أن الإنسان ليس في ذاته إلا ما يفعله؛ أي أنه لا يمكن معرفة شخصية الإنسان إلا من خلال ما ينجزه وما يقوم به من أفعال أثناء وجوده التاريخي الفعلي، ومن هنا ردد «سارتر» مع «مان دي بيران» (Maine de Biran) (١٧٦٦-١٨٢٤) مقولته: «أنا أفعل إذن أنا موجود»! في مقابل الكوجيتو الديكارتي، الذي يحدد وجود الإنسان من خلال التفكير وحده: «أنا أفكر إذن أنا موجود»[٢٤]. وفي مقابل هذه المقولة الديكارتية التي اعتُبرت مقولة عقلية صرفة لا تعبأ بفاعلية الإنسان في الواقع، صار الفعل هو المحدد للإنسان؛ فوجود الإنسان يتحدد بالتصرف الذي يصدر عن ذاته، والذي يمكن ترجمته على هيئة أفعال. ومن هنا جاء الاهتمام بفلسفة الفعل، لأن تحقيق هدف الوجود يتم من خلال الفعل الذي يجعل للحياة معنى.

نخلص من هذا إلى أن فيرنو ينتمي إلى التقليد الفكري الذي خرج من رحم الماركسية الإيطالية، وقد بدأت ملامح فلسفته في اللغة منذ أن كان طالبًا في الجامعة في أواخر ستينيات القرن الماضي، أما بالنسبة للمصادر التي أعتمد

---

(23) Moya, Carlos J.: **The Philosophy of Action**, PP. 2-3.

(٢٤) غبريال، كمال: **العولمة وصعود الحداثة**، القاهرة: دار دَوّن للنشر والتوزيع، ٢٠١٠، ص. ٢٣٥.

عليها في بناء نظريته السياسية في اللغة فجاءت متعددة وكثيرة وتستفيد من جملة من الاتجاهات الفلسفية المختلفة. وفي ضوء هذا تشكلت رؤيته حول علاقة اللغة بالسياسة من منظور فلسفة الفعل.

وإذا كان فيرنو ينطلق في تأويل علاقة اللغة بالسياسة من هذا المنظور، فإن هذا ما سنحاول البرهنة عليه في الصفحات القادمة من هذا البحث في ضوء دراسته للغة بوصفها ملكة للفعل الإنساني وبالنظر إلى وظيفتها في الحياة البشرية بصفة عامة وفي ميدان السياسة بصفة خاصة. ولنبدأ الآن بالتساؤل عن: ما موقف فيرنو من مشكلة اللغة؟ وما علاقتها بالطبيعة الإنسانية؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه في المحور الثاني.

(ISSN: 2536 - 9555)

المحور الثاني
ملكة اللغة: من الفعل الأدائي إلى تفسير المتسامي

إذا كنا قد وقفنا عند بعض المنطلقات التي وجهت فيرنو إلى الاهتمام بمسألة علاقة اللغة بالسياسة، فإن هذا المحور يأتي ليكشف عن ماهية اللغة عنده وعلاقتها بالطبيعة الإنسانية في توافقها وتناغمها، ومحاولتها الدائمة إلى الإبداع والتفرد. ومن ثَمَّ ينقسم المحور إلى عنصرين: يتناول الأول طبيعة اللغة وعلاقتها بالوجود الإنساني، ويكشف الثاني عن اللغة بوصفها ملكة لتفسير الخبرات المتسامية.

أولًا: ماهية اللغة وعلاقتها بالوجود الإنساني.

يميز فيرنو بين أفعال الكلام (Speech Acts) أو «اللّسان»، وأفعال اللغة بوصفها «مَلَكَة» (Faculty). وتتجسد أفعال الكلام في اللغات التاريخية الطبيعية (مثل اليونانية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية وغيرها من اللغات الأخرى) التي تخضع باستمرار لعمليات من التعديل على مستوى الكلمات والقواعد وفقًا للظروف التاريخية والاجتماعية المتغيرة. أما النوع الثاني فلا يتجسد إلا من خلال اللغة كفعل وممارسة، وبالتالي فهي قدرة أو ملكة تحكم التغيرات الحادثة في اللسان أو الكلام أو المستوى الأول للغة. ولهذا فإن اللغة كملكة تختلف من الناحية الكيفية والدينامية عن اللغة كلسان أو كلام[٢٥].

والواقع أن فيرنو بهذا التمييز إنما يقتفي خطى «فرديناند دي سوسير» في دراسته اللغة، حيث فرق بين «اللغة» Language من ناحية، و«الكلام» Langue و«اللسان» Parole من ناحية أخرى، وذلك على النحو الآتي:

(25) Virno, Paolo: **When the Word Becomes Flesh: Language and Human Nature**, tr. Giuseppina Mecchia, CA: Semiotext,2015, P. 34.

– «الكلام»: هو أي ألفاظ تصدر عن المتكلم أو هو نظام من القواعد التي تحكم العلاقة بين أقوال الكلام، وبالتالي فهو أداء فردي ملموس بوعي واختيار، وهو يقابل ما يُسميه تشومسكي بـ«الأداء» Performance.

– «اللسان»: وله جانب فردي وجانب اجتماعي، ولا يمكن أن نتصور أحدهما من دون الآخر. ويعني به الكلام الدقيق واستخدام اللغة أو ألفاظ الكلام «الفردية» أو اللغة المكتوبة والمنطوقة في الحياة اليومية، وبالتالي تكون اللغة بهذا المعنى بمثابة تواضع اجتماعي.

– «اللغة»: وهي على النقيض من ذلك، لها كيان موحد قائم بذاته، وهي أي كلام يُفهم منه أنه مكون من الاثنين السابقين وتشمل جميع جوانب النشاط اللفظي، وتقابل ما اصطَلح عليه تشومسكي بـ«الكفاءة» Competence، وهي تجريد للغة في نظام يستخلصه العقل، ويحدّد مكوناته، ويضع إجراءاته المُنتِجة، وهذا ما يسميه دي سوسير «اللسان» أو «الإفراج المشروط» ويقصد به «التحقق الذاتي المتعمد ليس فقط لملكة عامة Generic Faculty، وإنما للغة تاريخية ما Historical Language»[٢٦].

ويمضي فيرنو حيث يذهب إلى أن أفعال الكلام التي تتجسد في اللغات التاريخية تتميّز بتقلبات اجتماعية وثقافية، وتشكل ذخيرة لا حصر لها من أفعال الكلام المحتملة، كما نجد على سبيل المثال في مجموعة الإعلانات التي يمكن أن نؤلفها باستخدام الأنظمة الصوتية والمعجمية والنحوية المحددة في اللغة الإيطالية أو التركية مثلًا. وفي مقابل هذا، فإن اللغة بوصفها ملكة طبيعية تخص البشر وحدهم؛ فهي بمثابة قدرة بيولوجية مشتركة بين الأنواع البشرية بأكملها، لا تتوافق على الإطلاق مع مجموعة الألفاظ والمنطوقات المحتملة (بغض النظر عن مدى كونها غير محددة وممتدة)، ولكنها تتوافق مع القدرة البسيطة على النطق.

---

(٢٦) دي سوسور، فردينان: **علم اللغة العام**، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، مراجعة: مالك يوسف المطلبي، بغداد: دار آفاق عربية، ١٩٨٥، ص ص. ٢٦-٢٩.

(ISSN: 2536 - 9555)

وبالتالي فإن اللغة التاريخية يمكن أن تستشرف تقريبًا، على مستوى الشكل والمضمون، الأفعال الملموسة التي يمكن للمتحدث أن يؤديها، في حين أن اللغة نفسها «كملكة» لا شكل لها، وخالية من أي مضمون أو محتوى: إنها قوة غير محددة، ودائمًا ما تكون غير متجانسة لأي فعل محدد(٢٧).

إن هذا يعني أن اللغة بوصفها ملكة عامة تخص البشر وحدهم، وهي تتميز بطبيعة عامة مختلفة عن طبيعة أفعال الكلام المنطوقة والمكتوبة، وهي لا تتحدد من خلال المخزون المحدود أو اللامحدود للألفاظ والمفردات في اللغات التاريخية المعروفة. وهنا نلاحظ تعويل فيرنو على الجانب الثاني للغة، أعني اللغة بوصفها خاصية طبيعية ولاتاريخية، في حين ينظر إلى أفعال الكلام في جانبها الأول على أنها ذات طبيعة تاريخية ومشروطة.

ومما سبق يتضح أن فيرنو يضع تمييزًا بين مستويين للغة:

(١) **المستوى الخاص**، الذي تتجسد فيه اللغة في ألفاظ وتعبيرات خاصة Particular Utterances، ضمن اللغات التاريخية الملموسة.

(٢) **المستوى العام**، الذي تكون فيه اللغة ملكة أو قدرة لا متناهية ولا إطار محدد تقع فيها ولا مضمون مقيد تسير في إطاره.

ويشير المستوى الأول إلى الأفعال الأدائية الخالصة؛ فعبارة «أنا أتكلم» I speak تجسد «أداءً مطلقًا» Absolute Performative، وهي عبارة تفسّر حدث اللغة ودخولها في العالم، وتحوز على قوتها الفاعلة من ضوء طقوس معينة، مثل المناسبات الدينية، أو الإجراءات القانونية، أو الألعاب الرياضية(٢٨). وهذا يعني أن النطق، وإصدار الأصوات، وتجسد اللغة على هيئة كلمات وأقوال، ليست جوانب عرضية في الكائن البشري، وإنما هي تمثل بالنسبة لفيرنو «أداءً مطلقًا». غير أن فعل الكلام الأدائي المطلق هذا إنما يحدّد في النهاية قدرتنا على الانتقال إلى الفعل، وهنا تتجلى اللغة كملكة أساسية لاتاريخية.

---

(27) Virno, Paolo: **When the Word Becomes Flesh**, PP. 34-35.
(28) Ibid, P. 38.

كذلك يذهب فيرنو إلى أن كلا المستويين للغة يتجسدان في إطار حسي نشط، غير أن المستوى الأول يتأثر بالجوانب الأنثروبولوجية الوراثية Anthropo-genetic، أما المستوى الثاني فيتأثر بعوامل خارجية مثل التشيؤ Reification والاغتراب والصنمية وما إلى هذا، وكذلك بالظروف التاريخية والطبيعية[٢٩]. وعلى أي حال، فإن فيرنو يعطي الأولوية للغة كقدرة أو ملكة مؤكدًا على أنه لا يمكن اختزالها في تاريخ خطي لتطور «اللغات الطبيعية». ومن ناحية أخرى فإن هذه القدرة، وهي الإمكانات والديناميات التي أكد عليها أرسطو، هي التي تحدّدنا كبشر.

ومن الملاحظ أن تمييز فيرنو بين «اللُغة» كملكة من جهة و«اللغات الطبيعية» من جهة أخرى، يجد ما يدعمه في كتابات «ليف فيجوتسكي» (Lev Vygotsky) (١٨٩٦-١٩٣٤)، و«دونالد وينيكوت» (D. Winnicott) (١٨٩٦-١٩٧١)، وغيرهما مما عَدّ جهد الطفل لاستعمال ملكة اللغة أولاً وقبل كل شيء ممارسة لتأكيد الذات وسط المجموعة[٣٠]؛ وكذلك في كتابات «سوسير» الذي عَدَّ اللغة ملَكة بشرية ونظامًا من العلامات التي ترتبط في ما بينها بمجموعة من العلاقات لتشكل بنية تميّز البشر وحدهم، وبالتالي فهي «ليست سوى مجموعة غير محدودة من العلاقات المتعارضة بين المصطلحات»[٣١].

وهنا يبدو فيرنو متأثرًا كذلك بعالم السيميوطيقا «إيميل بنفينيست» (Émile Benveniste) (١٩٠٢-١٩٧٦) الذي أكد وجود ملكة يمكن تمييزها من الناحية المنطقية عن مجرد الكلام الذي ينتجه الفرد في سياق تاريخي واجتماعي معين. كما يبدو فيرنو منطلقًا من آراء «إرنستو دي مارتينو» (Ernesto de Martino)

---

(29) Ibid, P. 17.

(30) Mecchia, Giuseppina: "**Paolo Virno: From the Language of Labor to the Labor of Language**", P. 497.

(31) Virno, Paolo: "**The Money of Language: Hypotheses on the Role of Negation in Saussure**", Trans.: Timothy Campbell, *Diacritics*, Vol. 39, No. 4 (Winter 2009), P. 150ff.

(ISSN: 2536 - 9555)

(١٩٠٨–١٩٦٥) الذي عَدُّه فيرنو «واحدًا من الفلاسفة القلائل الأكثر إبداعًا في مجال اللغة في القرن العشرين»، حيث عرف اللغة على أنها النشاط الذي يعيد تكوين تاريخ الأنواع البشرية، وذهب إلى أن «انهيار أي شكل من أشكال الحياة، وما يترتب على ذلك من دخول ما بعد التاريخ Metahistory في مجال الحقائق التاريخية، يعني (نهاية العالم الثقافية) (Cultural Apocalypse)»، وأخيرًا يبدو فيرنو متأثرًا بفلاسفة اللغة من أمثال: «فريجه»، و«فتجنشتين» وغيرهما ممن حاول كشف العلاقة بين ملكة اللغة وإمكانية معرفة العالم[٣٢].

ونتوقف مع «فتجنشتين» لما له أهمية. فقد بدأ «فتجنشتين» في المرحلة الأخيرة من تطوره الفكري، برفض تام للتصور البراجماتي أو الذرائعي للغة بوصفها فضاءً أحاديًا[٣٣]، انطلاقًا من أن اللغة تعكس مفهوم الإنسان لذاته وواقعه، علاوة على دورها المهم في صياغة المفاهيم. ومن ناحية أخرى، فإن اللغة عنده **ينبغي أن تُفهم من خلال علاقتها بالسياق**؛ فالمعنى بالنسبة للكلمة لا يمكن العثور عليه من خلال البحث عن الشيء object أو المرجع Referent (المدلول) الكامن «خلفه»، ولكن من خلال النظر إلى استخداماته في ألعاب اللغة التي نستعملها. ومن هنا فإن واحدة من أفضل ألعاب اللغة التي يجب دراستها لهذا الغرض هي تلك اللعبة (الاستخدام) التي تُدرس فيها الكلمة، وهنا نكون بإزاء ما أسماه «المتشابهات العائلية» (Family Resemblances)، حيث «تكوِّن

---

(32) Mecchia, Giuseppina: "**Paolo Virno: From the Language of Labor to the Labor of Language**", P. 497.

وانظر أيضًا:

Virno, Paolo: "**Natural-Historical Diagrams: The 'New Global' Movement and the Biological Invariant**", in: *The Italian Difference: Between Nihilism and Biopolitics*, ed.: Lorenzo Chiesa and Alberto Toscano, Melbourne: Repress, 2009, P. 140.

(٣٣) للمزيد حول وجهة النظر البراجماتية للغة، انظر: بريسول، أحمد: «**القالبية والبعد الذريعي للغة**»، مقال منشور ضمن: مجلة عالم الفكر، العدد ١٩١، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون، يوليو– سبتمبر ٢٠٢٣، ص ص. ١٤٣–١٦١.

الألعابُ عائلة»[٣٤]. وعلى حدّ قول فتجنشتين: «أمام أي صعوبة تواجهك في البحث عن تعريفات تناظر تصوراتنا في علم الجمال وفي علم الأخلاق، اسأل نفسك دائمًا: كيف تعلمنا معنى هذه الكلمة (كلمة «خير»، على سبيل المثال)؟ وبأي نوع من الأمثلة؟ وفي أي لعبة من ألعاب اللغة؟ وهنالك سيكون من السهل عليك أن ترى أن الكلمة لابد أن تكون لها عائلة من المعاني»[٣٥].

وفي ضوء هذا، فإن المعنى النابع من اللغة ذو طبيعة خاصة بأشكال الحياة والثقافات المختلفة، ولهذا يضيف «فتجنشتين»: «ما هو معيار الطريقة التي تفيد بها الصيغة معناها؟ إنه، على سبيل المثال، نوع الطريقة التي نستخدمها بها دائمًا، أو الطريقة التي تعلمنا أن نستخدمها بها»[٣٦]. ومن هنا فهو يتعامل مع اللغة في ضوء الشروط والظروف الطبيعية الخاصة بالإنسان. وعلى الخط نفسه، يؤكد فيرنو هذا حيث يقول: «دعونا نعترف للحظة أن العديد من أقوالنا وعباراتنا التي نتحدث بها تتضمن أهداف خارجة عن نطاق اللغة Extra-linguistic. لكن تظل الحقيقة الأكثر حسمًا هي أننا لا نستطيع تفسير نشاطنا اللغوي هذا، وقوانينه الخاصة، عن طريق الانتقال من واحدة إلى أخرى من هذه الغايات الخارجية، أو حتى بالنظر إلى مجموعها بالكامل. إن الافتراض من هذا النوع إنما يشرح قواعد اللعبة من خلال التأثيرات المختلفة التي يمكن أن تحدثها على اللاعبين (التسلية، أو الملل، أو تنمية الصداقات، أو المنافسات). ومع هذا، فإن هذا الافتراض مشروع تمامًا عندما لا نكون بإزاء **فعل** Action يقوم على الموهبة والخلق، وإنما مع شيء ينتمي إلى **مجال الإنتاج** Production ويهدف إلى بناء

---

(٣٤) فتجنشتين، لودفيج: **بحوث فلسفية**، ترجمة: عزمي إسلام، مراجعة: عبد الغفار مكاوي، الكويت: وكالة المطبوعات، ١٩٩١، الفقرات ٦٥-٦٧، ص ص. ٨٦-٨٨.

(٣٥) المرجع السابق، الفقرة ٧٧، ص. ٩٣.

(٣٦) المرجع السابق، الفقرة ١٩٠، ص. ١٤٦.

(ISSN: 2536 - 9555)

منتج مستقل: فالمنزل الذي سيتم بناؤه– وهو النتيجة النهائية– هو الذي يحدّد في النهاية أصغر التفاصيل والإجراءات الخاصة بعملية بناء المنتج»[٣٧].

من هنا يذهب فيرنو إلى أن «أفعال الكلام لا تعتمد على أهداف خارجة عن نطاق اللغة، تمامًا كما لا يعتمد **أداء** البيانو المحفور في ذاكرتنا على رغبة عازف البيانو في تحقيق الثروات. والدليل المضاد لهذه الحجة هو أن ملاءمة عباراتنا أو **كمالها** لا يمكن قياسها على أساس نتائجها». وكما كتب «فتجنشتين»: «إذا كنت أرغب في نحت كتلة من الخشب في شكل معين، فإن أي قطع يمنحها الشكل الصحيح يُعَدُّ أمرًا جيدًا. لكنني لا أسمي الحجة حجة جيدة لمجرد أن لها النتائج التي أريدها (البراجماتية). وقد أخطئ في الحساب حتى لو كان الفعل المبني على نتيجته قد أدى إلى النهاية المرجوة»[٣٨].

وعلى أي حال، فمن الملاحظ أن فيرنو يحدد ماهية الحياة الإنسانية باللغة وحدها ويطابق بينهما، وإلى الحد الذي يذهب معه إلى تعريف اللغة بالحياة، لأن كليهما «يشتركان في عدم التحديد ذاته. وانطلاقًا من أن كليهما لا يستهدف أي غاية خارجية، فإنهما يتبعان القواعد النوعية نفسها. لكن عدم التحديد هذا هو الذي يفتح المساحة لأي موضوع خارجي تكون قيمته هي بالضبط «ما يمكن تغييره». ومن هنا تحدّد لغتنا المتجسدة كل أشكال المهارة والبراعة الطبيعية. وإذا كان الأمر كذلك، فإن البشر بحاجة دائمًا إلى توسيع هذه الروابط الأساسية. وكل النماذج الخاصة بجميع أوجه النشاط الأخرى من دون أن تكون مجرد «إنتاج» إنما هي كامنة في اللغة وحدها، التي تمثل قدرة على الخلق والإبداع»[٣٩].

وهذا يعني أنه من خلال اللغة، تتجلى الطبيعة البشرية وإمكاناتنا التاريخية، واللغة هي التي يمكن أن ترشدنا نحو إنجازات هادفة ومكتسبات أكثر وعيًا بالنسبة لنا. ولهذا يضيف فيرنو بأن اللغة ليس لها عمل خارجي تصبو إلى تحقيقه، لأنها

(37) Virno, Paolo: **When the Word Becomes Flesh**, P. 25.
(38) Ibid, PP. 25-26.
(39) Ibid, P. 29.

ليست أداة تُستخدم لتحقيق أهداف خارجية[٤٠]. ومن هذه الزاوية يلتقي فيرنو مع «أرنست كاسيرر» (Ernst Cassirer) (١٨٧٤-١٩٤٥) الذي أكد ارتباط اللغة بالعالم الذاتي للأشخاص؛ فكل تحديد أو تخصيص تقدمه اللغة لعالم الأشياء والموضوعات ينعكس بدوره في تحديدها للعالم الذاتي الخاص بالإنسان، وكل بناء جديد للعالم الموضوعي حيثما كان مكانيًا أو زمانيًا أو عدديًا يقدم صورة جديدة للعالم الموضوعي، لكنه من ناحية أخرى يكشف عن ملامح جديدة في عالمهم الداخلي. لكن هذا لا يعني عجز اللغة عن امتلاك وسيلة متميزة في التعبير عن العالم الداخلي؛ فللغة وسائلها المستقلة في تقديم صورة الوجود الذاتي بعيدًا عن مقولاتها الموضوعية في التعامل مع العالم الخارجي[٤١].

وعلى الرغم من أن فيرنو لا ينظر إلى اللغة بوصفها وسيلة بحدّ ذاتها، وإنما كخاصية نوعية تميّز البشر وحدهم، فإنه يعتبرها وسيطًا بين الذات (الفرد) والموضوع (العالم)، وعلى حد قوله: «اللغة (ظاهرة انتقالية) (Transitional Phenomenon)، حيث تحضر ممارسة اللغة بسبب الفجوة بين الذهن والعالم، وهي فجوة لا يمكن تفاديها بسلوك محدد مسبقًا ولكن يجب تغطيتها من خلال الفعل الخلاق عن طريق اللغة والقواعد النوعية المطلقة التي تحكمها»[٤٢].

وخلاصة القول، إذا كانت اللغة ملكة خاصة بالبشر، فإنها لا يمكن أن تتجسد إلا من خلال الفعل؛ فعازف البيانو وعلى الرغم من براعته، فإنه يعتمد على فعل أدائي عام Public Performance لما ينتجه. ومن هذا المنظور، تجسد اللغة ماهية الوجود الإنساني وسمته المميزة. ومن الملاحظ أن فيرنو بهذا المنظور أو التعريف «الطبيعي» Naturalistic للغة إنما يقتفي مرة أخرى خطى «فتجنشتين» الذي تبنى «المذهب الطبيعي في اللغة» (Linguistic

---

(40) Ibid, P. 24.

(٤١) الجزيري، مجدي: **السيميوطيقا وفلسفة اللغة عند كاسيرر**، الإسكندرية: طبعة دار الوفاء للطباعة والنشر، ٢٠٢٠، ص. ١٤٣.

(42) Virno, Paolo: **When the Word Becomes Flesh**, P. 30.

(ISSN: 2536 - 9555)

(Naturalism؛ أعني النزعة التي تربط اللغة بوظيفتها في الحياة الطبيعية الإنسانية[٤٣]. وبذلك يعول «فتجنشتين» على أهمية السياق عند دراسة اللغة واستعمالاتها، وبالتالي فاللغة عنده بوصفها صورة الحياة، هي اللغة الطبيعية التي تشكّل فضاءً للتواصل.

ثانياً: اللغة بوصفها ملكة سياسية لتفسير الخبرات المتسامية.

ينطلق فيرنو من البحث عن الأبعاد السياسية للغة وكذلك أبعادها ودلالاتها الفلسفية من خلال التعويل على تعريف أرسطو المزدوج للإنسان بوصفه حيوانًا سياسيًا من الناحية الاجتماعية، وكائنًا متفردًا من الناحية البيولوجية كنوع يتميز بالقدرة على الكلام. ويوضح فيرنو طبيعة هذا التوصيف المزدوج بأن عازف البيانو أو الشخص الموهوب في الموسيقى، على سبيل المثال، يتحقق وجوده من خلال «الأداء»، وبالتالي فإن ما يحتاجه أولاً وقبل كل شيء هو مساحة عامة تسمح له بالتعبير عن قدرته المحددة المرتبطة بنوعه. أما بالنسبة للمتحدث بشكل عام فليس لديه مستوى ليتبعه، لأن اللغة نفسها تمنحه الفرصة لإدراك وتحقيق إمكانات غير محدودة من فعل الأداء. وحول هذا المعنى يقرر فيرنو: «تتضمن الممارسة اللغوية قوة الكلام غير المتبلورة، والإمكانية الخالصة والبسيطة على القول، والصوت الدلالي. فإذا كان تفوق عازف البيانو يتجسد في اختيار المقطع الملائم من النص أو «عمل السيناريو» Act-Script إلى «فعل الأداء» Act-Performance، فإن قدرة المتحدث اللامحدودة تكون واضحة في الطريقة التي يعبّر من خلالها، في كل مرة من جديد، عن علاقة الإمكانية Potentiality بالفعل Action. وهذه العلاقة نفسها، هي التي تميّز ما نطلق عليه «الأداء البارع الطبيعي» (Natural Virtuoso Performance) الذي يتألف من تعديل

---

(٤٣) الجزيري، مجدي: **المتشابهات الفلسفية لفلسفة الفعل عند فتجنشتين**، القاهرة: دار آتون للنشر والطباعة، ١٩٨٦، ص. ٥٠.

اللااحتمالية Indeterminacy الكامنة في الحياة واللغة من خلال الأحكام المشمولة بالنفاذ»(٤٤).

وفي ضوء ما سبق يوضح فيرنو أن اللغة تعبِّر بشكل مباشر عن شروط الإمكانية التي تتحقق فيها خبراتنا، من وجهة نظر متسامية Transcendental وبيولوجية في الوقت نفسه. وعلى هذا النحو يكون الإنسان المخلوق الوحيد القادر على أن يتجاوز على وجه التحديد هذه المسافة لأنه غير مرتبط بمجال حيوي محدد مسبقًا، ويسكن في الغالب في هذه المنطقة غير المحددة. وإنّ هذه المساحة المحتملة بين الذهن والعالم- وهي أرض محرمة حقًا (لكل إنسان)- هي في الأساس مساحة عامة تخص البشر وحدهم(٤٥).

وفي هذا الصدّد، يميّز فيرنو بين مستويين وجوديين Ontological في اللغة: المستوى الوجودي لما هو تجريبي Empirical («ما يُقال» فعلًا كما هو محدد في المكان والزمان)، والمستوى الوجودي لما هو متسامي Transcendental («حقيقة القول» كشرط للاحتمال). ثُم يقارن عمل المتكلم بعمل الفنان الذي يبدع المقطوعة الموسيقية، حيث لا يكون النشاط اللغوي ككل **إنتاجًا** Production (poiesis)، كما أطلق عليه اليونانيون ولا **إدراكًا** معرفيًا Cognition (Episteme)، بل يكون بالأحرى **فعلًا** أو ممارسة Action (Praxis)(٤٦).

وينطلق فيرنو من التركيز على الإطار السياسي لنشأة اللغة. فاللغة ونظرًا لعدم تجانسها، لا يمكن اختزالها إلى أفعال الكلام المعتمدة على قواعد النطق في اللغات التاريخية، ولكن بسبب طابعها البيولوجي والفسيولوجي، يمكن أن تكون خبرةً لما هو متسامي Transcendental، رغم أن اللغة ذاتها لا تنفصل عن السياق التاريخي والسياسي الذي نشأت فيه. ويمضي فيرنو موضحًا أن الأصول الفعلية لاعتناق أي خطاب فلسفي معين مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بلحظات أو فترات

(44) Virno, Paolo: **When the Word Becomes Flesh**, P. 33.
(45) Ibid, P. 30.
(46) Ibid, P. 24.

(ISSN: 2536 - 9555)

من الانكسار أو التراجع أو الهزائم السياسية والمعنوية، وعلى حدّ تعبيره: «من الطبيعي تمامًا أنه في لحظات الأخطار الوجودية؛ عندما يكون كل شيء معرضًا للخطر، نجد أنفسنا مدفوعون لتوسيع أفقنا ونظرتنا إلى بعض المشكلات الأساسية في الحياة البشرية. ولكن من الطبيعي بالقدر نفسه أن يعمل التفكير المتجدد في مشكلات الإنسان وقضاياه الأساسية، على إحكام تفسيرنا لما يحدث في الواقع الآن وبشكل أفضل. وهذه ليست مسألة منهجية. فمنذ ثمانينيات القرن العشرين، استغل الإنتاج الرأسمالي بعض جوانب وفعاليات الخبرة الإنسانية لصالحه بدءًا من فعالية اللغة، والمرونة المرتبطة بالآثار المدمرة للبيئة، والتشابهات بين ما هو ممكن وما هو متوقع. وبالتالي من أجل فهم عملية الإنتاج الرأسمالي الحالي، من المفيد تمامًا التركيز على السمات النوعية أو الكيفيات التي تغيّرت في أنواعنا البشرية»[٤٧] وعلى رأسها ملكة اللغة.

ومن هنا ينظر فيرنو إلى اللغة بوصفها الشيء الوحيد الذي يمكنه تفسير خبراتنا المتسامية دون اللجوء إلى موضوع ثابت، ويبرر ما يذهب إليه بأن أفعال الكلام لدى الطفل لا تصل إلى جوهر اللغة الطبيعية، ولكنها تشهد فقط على ملكة عامة في إصدار الأصوات الواضحة؛ أعني كدليل وجودي على القدرة على الكلام، ويتحقق هذا الدليل الوجودي على القدرة على الكلام عن طريق الصوت الدال[*]. أما فعل اللغة الذي يهدف إلى الاختبار والإثبات، والذي يشكّل هذا

---

(47) Virno, Paolo: **Convention and Materialism: Uniqueness without Aura**, tr. Lorenzo Chiesa, Foreword: Giorgio Agamben, London: MIT Press, 2021 (1986), xii.

(*) ما يقوله فيرنو صحيح؛ لأن الصراخ الذي يُعَدُّ من مراحل اكتساب اللغة لدى الطفل يمثل أبسط الظواهر الملحوظة لفعل الكلام، ويأتي بتنويعات عديدة، ولكنه لا يُعَدُّ، بأي حال، لغة طبيعية ولا يصل إلى اللغة كملكة عامة رغم كونه محاولة للاتصال مع الآخرين. فنوع المعلومة التي يحاول نقلها أقرب ما تكون إلى نبرة أو لهجة الصوت: وبالتالي فصراخه يبدو حالة عاطفية وليست لغة طبيعية تشكّل فضاءً للتواصل بالمعنى المحدد. انظر:

الدليل، فيجب النظر إليه على أنه أداء فسيولوجي، مثل حركة التنفس المنتظمة. ولذلك، ففي اللغة الخاصة بالشخص ذاته Egocentric Language، نشهد انفصالًا بين اللغة كملكة طبيعية وبين فعل الكلام الذي يتحقق عن طريق الإفراج المشروط: فاللغة الطبيعية، التي عادة ما تخضع لملكة اللغة دون أي بقايا، تفقد قوتها وتصبح وسيطًا بسيطًا بين القطبين الآخرين»(٤٨).

ومن هذه الزاوية يبدو فيرنو متأثرًا بـ«كاسيرر» الذي عَدَّ اللغة من أهم الفاعليات التي تميّز الإنسان بوصفه «حيوانًا رامزًا» (Symbolic Animal)، رغم أنه أبدى تحفظه على النظرة التقليدية لطبيعة الإنسان عند أرسطو وديكارت، والتي تصوره بأنه «حيوان ناطق» أو عاقل، لأن العقل- أو النطق- في رأيه اصطلاح ناقص لا يُمكِّننا من فهم الطرق الجديدة التي دفعته إلى حياة المدينة وفهم أشكال الحياة في ثرائها وتنوعها. وإذا كانت الأشكال والصور التي أبدعها الإنسان كلها أشكالًا رمزية، فإن الوصف الدقيق هو أن نحدّ الإنسان بأنه «حيوانٌ رامزٌ»، أو مبدعًا للرموز، بدلًا من أن نحدّه بالعقل أو النطق(٤٩). ومن ناحية أخرى فإن هذه الأشكال الرمزية، من لغة وأسطورة وفن ودين وعلم إنما تجسد الطبيعة "المتسامية" للروح الإنسانية وتشكل الخبرات وفقًا لقوانين محايثة(٥٠). وهنا فإن هذه الأشكال الرمزية تساهم في خلق دلالات متطابقة ذاتيًا لعالم الأشياء،

(Jackendoff, Ray S.: **Patterns in the Mind Language and Human Nature**, New York: Basic Books, 1994, P. 102).

(48) Virno, Paolo: **When the Word Becomes Flesh**, P. 66.

(٤٩) كاسيرر، أرنست: **مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية**، ترجمة: إحسان عباس، مراجعة: محمد يوسف نجم، بيروت: دار الأندلس، ١٩٦١، ص ص. ٦٨-٦٩.

(50) Cassirer, Ernst: **The Philosophy of Symbolic Forms**, Vol. I (Language), tr., by: Ralph Mankeim, New Haven, CT: Yale Univ. Press, 1955, P. 186.

وأيضًا: (كاسيرر، أرنست: **اللغة والأسطورة**، ترجمة: سعيد الغانمي، أبوظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (مشروع كلمة للترجمة)، ٢٠٠٩، ص ص. ٨١، ١٥١-١٥٢).

(ISSN: 2536 - 9555)

وهي بذلك تمثل وسيطًا للأفكار والمعاني، بحيث يمكن من خلالها تجاوز التدفق الزمني للخبرات الإنسانية وصور الوعي المتغيرة(٥١).

إن هذا التصور لماهية اللغة عند كاسيرر وكذلك فيرنو إنما يؤكد قدرة الإنسان من خلال اللغة على خلق دلالات جديدة لعالم الأشياء والواقع من حوله، ومن هنا تتضح أهمية اللغة ليست فقط كوسيلة للمعرفة بل أيضًا كوسيلة للتعبير الحضاري والسياسي وتمثيل الأفكار، والتعبير عن الدلالات الثرية في الثقافة. ومن ناحية أخرى، يبدو فيرنو مخالفًا الماركسية في نزوعه إلى تحديد بنية كلية للغة؛ وفي ضوء هذا تتمثل مساهمته في مد جسور التواصل حول علاقة ما هو متسامي (ترانسندنتالي) بما هو حسي (تجريبي)، حيث تبدو الحالات المتسامية، والتي يُفترض أنها غير تاريخية وغير تجريبية، كمرتكز لإمكانية تحقق الأشياء التاريخية، وتظهر نفسها في شكل مادي ملموس(٥٢).

وخلاصة القول، من خلال اللغة كملكة يستطيع الإنسان أن يُعبِّر عن «طبيعته» البشرية بطريقة تلقائية أو عفوية، وعن طريقها يمكن له أن ينتقل من الفعل الأدائي إلى تفسير خبراته المتسامية. وفي النتيجة فإن اللغة هي المدخل إلى السياسة وليس العكس؛ وهذا ما سيتضح أكثر في المحور التالي من البحث.

---

(51) Habermas, Jürgen: **The Liberating Power of Symbols: Philosophical Essays**, trans. Peter Dews, Cambridge: The MIT Press, 2001, P. 10.

(52) Lewis, Michael: "**Virno's Philosophical Anthropology**", *Journal of Italian Philosophy*, Vol. 1, 2018, P. 131.

المحور الثالث
الانطولوجيا السياسية (الأبعاد السياسية للغة)

تناولت في المحور الثاني ماهية اللغة وارتباطها بحالة التسامي، وخرجنا من هذا إلى أن اللغة أداة سياسية بطبيعتها. وهنا يأتي المحور الثالث ليكشف عما يمكن تسميته بـ«الأنطولوجيا السياسية» (Political Ontology) وهي مرتكز أساسي تعتمد عليه نظرية فيرنو السياسية في اللغة. وبداية فإن المراد بالأنطولوجيا السياسية: دراسة طبيعة وخصائص العالم السياسي من منظور فلسفي. وبوصفها مجالاً فلسفيًا، فإنها تعني بدراسة طبيعة المجموعات السياسية وأهدافها والقصد الجماعي ووسائط التعبير السياسي على نحو كلي، وكذلك تأثير المال والشركات والمؤسسات والعرق والجنس، من بين أشياء أخرى، على السياسة.

أولًا: "العمل" بوصفه فعلًا سياسيًا إبداعيًا.

أهتمت الفلسفة بدراسة مجالات الخبرة الإنسانية، وقد قسمها بعض الفلاسفة ضمن ثلاثة مجالات رئيسية: العمل Work، والفعل Action، والفكر Intellect. ولكل واحد من هذه المجالات مفهومه الخاص وأهدافه المميزة، إضافة إلى علاقته بالفضائل الإنسانية. ويعود هذا التقسيم الثلاثي إلى أرسطو، حيث رأى أن العمل ينتمي إلى مجال «الكد» Labor، أما الفعل (أو الممارسة) فيتصل بميدان «السياسة» Politics، وأخيرًا يرتبط الفكر بمجال «التصور» أو «الاعتقاد» Thought. ومن هذه الزاوية يبدو هذا التقسيم كما يقول فيرنو مترسخًا في تقاليد الفكر الفلسفي، وهو ليس نقطة انطلاق لمشروع فلسفي بعينه، بل هو بالأحرى نمط فكري مشترك على نطاق واسع[٥٣].

(53) Virno, Paolo: **A Grammar of the Multitude: For an Analysis of Contemporary Forms of Life**, tr. Isabella Bertoletti, James Cascaito, Andrea Casson, Foreword: Sylvère Lotringer, CA: Semiotext(e), 2004, P. 26, 49-50.

(ISSN: 2536 - 9555)

وقد أعادت «حنَّه أرندت» (Hannah Arendt) (١٩٠٦-١٩٧٥) التأكيد على هذا التقسيم المميز ضمن نظريتها السياسية. لكن أرندت تفصل بين مجالين رئيسيين: «حياة العمل» (Vita Activa) و«حياة الفكر أو التأمل» (Vita Contemplativa)، وتذهب إلى أن السبيل الأوحد لتحرير الإنسان يتمثل في إيمانه بضرورة «الفعل» الإبداعي في ميدان السياسة؛ لأنه الميدان الذي تظهر فيه الحرية كحقيقة من حقائق الحياة اليومية. ومن ثَمَّ فلا بُدَّ عند الحديث عن مشكلة الحرية أن نضع نُصْبَ أعيننا موضوع السياسة، وذلك انطلاقًا من أن الإنسان مخلوقٌ وُهب موهبة «الفعل». وإن «الفعل» و«السياسة» هما الوحيدان من بين مجموع قدرات الحياة البشرية وإمكاناتها اللتين لا يمكننا حتى تصورهما من دون أن نفترض على الأقل أن الحرية موجودة[٥٤].

وعلى الرغم من أن هذا التقسيم التقليدي لمجالات الخبرة الإنسانية يبدو معقولًا، وواضحًا وواقعيًا، فإن فيرنو يأتي ليخالف ما ذهبت إليه أرندت في ناحية مهمة. فعلى الخط ذاته، نجده يستعيد التفرقة التي أقامها اليونانيون بين الإنتاج Poiesis من ناحية والفعل العام Praxis من ناحية أخرى، لكنه يعيد صياغة هذه المفاهيم الأساسية ثُم يقوم بعملية من التهجين بينها، في ضوء من الماركسية[٥٥]. وبالنسبة له، فإن القدرة على الفعل مرتبطة بالكلام ولها طابع بارع. ومن ناحية أخرى فإن للعمل نفسه موقعًا في الفعل السياسي، وبالتالي لا يوجد فصل تام بين «الكد» و«العمل» من جهة، والفعل من جهة أخرى. كذلك يذهب فيرنو إلى أن العمل في المجتمعات المعاصرة يدخل ضمن العديد من الخصائص التي تميّز في الأصل مجال الخبرة السياسية، وهذا هو الجانب الأساسي للشكل

---

(٥٤) آرندت، حنّة: "**ما هي الحرية؟**"، ضمن: بين الماضي والمستقبل؛ ستة بحوث في الفكر السياسي، ترجمة: عبد الرحمن بشناق، مراجعة زكريا إبراهيم، بيروت: طبعة دار جداول للنشر والتوزيع، ٢٠١٤، ص. ٢٠٤. وانظر أيضًا (الشريف، حمدي: «**الدلالات الرمزية لفلسفة الفعل عند حنَّه أرندت**»، منصة معنى الثقافية، ١١ يوليو ٢٠٢١).

(55) Virno, Paolo: **A Grammar of the Multitude**, P. 50.

الأكثر عمومية للتهجين بينهما. وعلاوة على هذا فإن السياسة، وفقًا لأرندت نفسها، بدأت في المجال الاقتصادي: فقد أصبحت معظم السياسات في القرن العشرين نوعًا من اختلاق أشياء جديدة: الدولة، والحزب السياسي، والتاريخ، وما إلى ذلك. ومن هذا المنظور، فقد سارت الأمور في الاتجاه المعاكس لما يبدو أن أرندت نفسها تعتقد به: وليس الأمر هنا أن السياسة تطابقت مع العمل؛ بل بالأحرى إن العمل قد اكتسب السمات التقليدية للفعل السياسي نفسه(٥٦).

إن هذا يعني أن فيرنو يخالف ما تذهب إليه أرندت، وقد أكد فيرنو نفسه هذا بقوله: «يجب أن يكون واضحًا أن ما أناقشه هنا يتعارض بشكل جذري مع المفاهيم التي تطرحها أرندت والتقليد الذي تستوحي منه هذه المفاهيم»(٥٧). ويوضح فيرنو سبب اختلافه بأنه «على الرغم من أن هذا التقسيم الفرعي لمجالات الخبرة أمر لا جدال فيه وتدعمه مبادئ وقواعد غير متجانسة جذريًا، فإنه من الواضح أن عدم تجانسه لا يستبعد التقاطع بينها: فيمكن أن تنعكس حياة الفكر والتأمل على السياسة؛ وفي المقابل، فإن الفعل السياسي نفسه يتغذى في كثير من الأحيان من خلال موضوعات تتعلق بمجال الإنتاج، وما إلى ذلك. ولكن، على الرغم من اختلاف التقاطعات، فإن القدرات الإنسانية المرتبطة بالعمل والفكر والسياسة تنتمي إلى مجالات ليست متطابقة بشكل أساسي لأسباب بنائية»(٥٨).

وفي ضوء هذا ليس ثمة إمكانية للفصل القاطع بين العمل والفعل والفكر. إذ يوجد قدر كبير جدًا من الفعل في عالم العمل المأجور من أجل أن تستمر السياسة ذاتها في التمتع باستقلاليتها. وقد أشار فيرنو إلى هذا الاختلاف مرة أخرى مع أرندت بقوله: «إن ما أذهب إليه معاكس ومتماثل في آن واحد لما

---

(56) Ibid, PP. 50-51.
(57) Virno, Paolo: "**Virtuosity and Revolution: The Political Theory of Exodus**", in: *Radical Thought in Italy: A Potential Politics*, eds. by: Paulo Virno and Michael Hardt, Minneapolis: University of Minnesota Press, 1996, P. 206.
(58) Virno, Paolo: **A Grammar of the Multitude**, P. 50.

(ISSN: 2536 - 9555)

تذهب إليه أرندت. فأنا أؤكد أنه في مجال العمل نجد (الوجود في حضور الآخرين)، والعلاقة مع وجود الآخرين، وبداية عمليات جديدة، والألفة الأساسية مع ما هو غير متوقع وما هو ممكن. ولهذا فإن العمل في ظل الرأسمالية يستغل المواهب والكَفاءات التي لها علاقة أكبر بالفعل السياسي»[٥٩].

كذلك تبدو نظرة فيرنو للسياسة المثلى متفقة مع نظرة «مايكل أوكشوط» (Michael Oakeshott) (١٩٠١–١٩٩٠) للطبيعة المتشابكة والمتداخلة بين مجالات الخبرة الإنسانية، التي تتوسطها السياسة بوصفها نشاطًا يُعنى بالترتيبات العامة لمجموعة من الأشخاص الذين يشكلون مجتمعًا واحدًا، نظرًا لاعترافهم المشترك بطريقة الاهتمام بهذه الترتيبات العامة[٦٠]. ومن هنا نزع أوكشوط إلى التأكيد بأن السياسة نوع من «السعي إلى تحقيق الألفة» (Pursuit of Intimations) بين مختلف تقاليد السلوك الاجتماعي، انطلاقًا من أن «الترتيبات التي يتألف منها مجتمع قادر على النشاط السياسي سواء كانت متمثلة في العادات أو المؤسسات أو القوانين، تمثل نوعًا من التماسك واللا تماسك في آن واحد، فهي تُكَّون في ما بينها نمطًا ما، وتمثل نوعًا من التعاطف الحميم مع ما لا يبدو لنا بشكل كامل، وما النشاط السياسي إلَّا اكتشاف هذا التعاطف الحميم»[٦١].

وهكذا تبدو نظرة فيرنو للفعل شمولية لا تقتصر على مجال واحد فقط؛ هذا إذا أخذنا الفعل في ضوء أبعاده العامة، الذي لا يعني، في السياسة على سبيل المثال، مجرد انتخاب عضو في البرلمان أو حتى رئيس الدولة[٦٢]. ومن ناحية

---

(59) Ibid, P. 51.

(60) Oakeshott, Michael: **Rationalism in Politics**, New York: Basic Books, 1962, PP. 123-124.

(٦١) مينوج، كينيث: «**مايكل أوكشوط؛ بحر السياسة الذي لا تَحِدّه حدود**»، ضمن: من فلاسفة السياسة في القرن العشرين، تحرير: أنطونى دى كرسبني وكينيث مينوج، ترجمة: نصَّار عبد الله، الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ٢٠٠٠، ص. ٥٨.

(62) Righi, Andrea: "**A Biopolitical Multitude and Its Planet: Antonio Negri and Paolo Virno**", in: Idem: *Biopolitics and Social*

أخرى، إذا لم تكن هذه المجالات للخبرة منفصلة تمامًا، فإنها ليست متطابقة كلية؛ وهذا ما يميّز رؤيته للفعل. وقد أكد «أرتور تريتياك» (Artur Tretyak) هذا بقوله: إن فيرنو يحاول أن يطمس الحدود بين المفاهيم الأساسية في فلسفة أرندت، وأن يعيد صياغة الفروق التي تضعها في نظريتها السياسية، وأن يجمع بين مجالات العمل والفعل والفكر. ومن هنا فإن تأثير أفكار أرندت على تشكيل فكر فيرنو السياسي اتخذ طابعًا نقديًا، وإن كانت هذه الاستراتيجية من جانب فيرنو لا تنجح دائمًا في تغطية جميع جوانب فكر أرندت السياسي بدقة(٦٣).

وإلى مثل هذا يشير «جيرالد رونيج» (Gerald Raunig) حيث يذهب إلى أن فيرنو يعتمد على ما يمكن تسميته بهجرة السياسي من المجال العام إلى مجال الإنتاج الاقتصادي، وينطلق في هذا الإدماج للفاعلية السياسية في عملية العمل على وجه التحديد من مفهومه للبراعة. فإذا كان المفهوم الأخير هو أحد الشروط الأساسية لنظام الإنتاج الرأسمالي الحالي، إلى الحد الذي يرتبط فيه أيضًا بظهور موضوع تاريخي سياسي جديد: هو الجمهور، فإنه في ظل الرأسمالية المتأخرة يتطور العمل بشكل متزايد إلى أداء بارع لا يحول نفسه إلى منتج نهائي؛ وفي الوقت نفسه، يتطلب هذا الشكل البارع من العمل مساحة منظمة مثل المجال العام. وعليه؛ فإن المحددات الأساسية للفعل السياسي عند أرندت– مثل الوجود مع الآخرين، وانكشاف الذات أمام أنظار الآخرين، وضرورة التعاون والتواصل– يصبح عند فيرنو من المحددات الأساسية للعمل في المجال الاقتصادي(٦٤).

Change in Italy: From Gramsci to Pasolini to Negri, London: Palgrave Macmillan, 2011, P. 157.

(63) Tretyak, Artur: "**The Life of the Work: Virno's Reception of Arendt's Political Theory**", *Russian Sociological Review*, Vol. 17, No. 4, 2018, PP. 158ff.

(64) Raunig, Gerald: "**Modifying the Grammar: Paolo Virno's Works on Virtuosity and Exodus**", *Artforum International*, Vol. 46, No. 5, (January 2007), P. 1.

(ISSN: 2536 - 9555)

وفي ضوء هذا الربط بين مجالات الخبرة الإنسانية، يتعيَّن على الجمهور، بوصفه الطبقة الضعيفة والمسلوبة من الحقوق، أن يفكروا بأنفسهم وينتقلوا من حالة الكد أو العمل الاقتصادي الخالص إلى حالة الفكر والفعل في السياسة. وبالتالي ليس ثمة فصل بين مجالات الخبرة من كد وعمل، وفعل، وتأمل وفكر؛ لأن شكل حياة الجمهور في ظل الرأسمالية المتأخرة يهجن مجالات العمل والفعل والفكر. لكن لا يعني هذا، بطبيعة الحال، أن نمط العمل في ظل الرأسمالية هو النمط الأمثل الذي يقرره فيرنو، وإنما يجب أن يتحول العمل إلى شكل من الفعل التواصلي الخلاق من خلال اللغة. وبمعنى آخر أن يكون الفعل مجسدًا لملكة اللغة. ومن هذا المنظور تكشف اللغة عن إمكاناتها السياسية والجمالية في علاقتها بعملية الإنتاج، والأهم من هذا أنها تتجسد في **الفعل العام النهائي** Ultimate Public Act للإنسان.

وخلاصة القول، يستهدف فيرنو استعادة النظرة الفلسفية الشمولية إلى السياسة ليس بوصفها نوعًا من «الإنتاج» الخالص الذي لا يتصل بملكة اللغة كفعل بصلة، وبالتالي لا يفصل اللغة عن السياسة أو عن غيرها من مجالات الخبرة الإنسانية، إذ من الصعب أن تكون السياسة بلا هدف أو مستقلة عن الظروف التاريخية والاقتصادية والاجتماعية المحيطة بالإنسان، وهي نوع من الإبداع والخلق أو القدرة على الفعل الحاسم والمميّز من خلال اللغة ليس كوسيط أدائي خالص بل بوصفها الخاصية النوعية المميّزة لما يسميه فيرنو (الجمهور)، الأمر الذي يقودنا إلى التساؤل: ماذا يعني فيرنو بهذا المفهوم على وجه التحديد؟

ثانيا: **"الجمهور" بوصفه مقولة سياسية لغوية**.

في حديثه عن الإنسان كنوع متميّز من المخلوقات بوجه عام وكحامل لملكة اللغة، يستعمل فيرنو مصطلح Multitude، وهي كلمة تعني «الجنس البشري» أو الجمهور أو المَلأ أو «الجَمْع» (وجمعها «جُمُوع»)، ويشير هذا المفهوم إلى أي «نمط للوجود» (Mode of Being)، كالطريقة السائدة للوجود اليوم: ولكنها، مثل جميع أنماط الوجود، طريقة متناقضة، بمعنى أنها تحتوي في داخلها على كل

من الخسارة والخلاص، والإذعان والصراع، والخنوع والحرية، وبالتالي فهو مفهوم ذو أبعاد سياسية. لكن النقطة الأساسية بالنسبة لهذا المفهوم هي أن هذه الظواهر والاحتمالات البديلة لها مظهر غريب يختلف عن المظهر الذي ظهرت به ضمن مفاهيم الشعب، والإرادة العامة، والدولة[٦٥].

وفي هذا الصدد، يذهب بعض المُنظِّرين إلى أن أقرب كلمة لهذا المفهوم هي كلمة (حَشْد)– من التعبير اللاتيني بوسّيه Posse الذي يشير إلى من لديه سلطة الفعل، أو مَجمُوع الأفراد النشطين الذين «يمتلكون السلطة». وقد بدأ هذا المفهوم يتشكل في طور النزعة الإنسانية في عصر النهضة. ومع ظهور الحداثة الأوروبية، بدت الفلسفة الحديثة، على صعيد مكوناتها الإبداعية التي كانت تفتقر في ذلك الوقت إلى روح التسامي Transcendence، ميَّالة إلى وضع هذا المفهوم في قلب القوة الانطولوجية: فالجمهور هو القوة التي تنسج المعرفة والوجود في عمليات تأسيسية موسعة. وحين نضجت النهضة الأوروبية وبلغت الحداثة منعطف الصراع مع قوى الثورة المضادة، أصبح هذا المفهوم رمزًا للمقاومة في إشارة إلى سلطة الحشد الإنساني ذي الطبيعة الخيرة؛ وذلك في أشكال مختلفة منها: صورة الإنسان الذي يعول على التجربة عند «فرانسيس بيكون» (Francis Bacon (١٥٦١–١٦٢٦)، وفي مفهوم الحب عند «كامبانيلا» Tommaso Campanella (١٥٦٨–١٦٣٩)، وفي القرن السابع عشر، استخدم «سبينوزا» (Baruch Spinoza) (١٦٣٢–١٦٧٧) عبارة Potentia في إشارة إلى مقولة «الحشد» أو «الجَمْع» التي تشير إلى السلطة المؤثرة[٦٦].

ومن هنا يشير مفهوم الجمهور إلى من لديه قدرة كامنة على الاستنفار وإلى أي جسد وأي عقل قادر على الفعل. ونظرًا لأن هذا الجسد أو العقل يستمر حيًا بصفة دائمة في غمرة المقاومة، فإن التجسد الميتافيزيقي له يصبح تعبيرًا سياسيًا.

---

(65) Virno, Paolo: **A Grammar of the Multitude**, P. 26.

(٦٦) هاردت، مايكل، وأنطونيو نيغري: **الإمبراطورية: إمبراطورية العولمة الجديدة**، ترجمة: فاضل جتكر، الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٢، ص. ٥٧٧.

(ISSN: 2536 - 9555)

ومن هنا يدل هذا المفهوم على مدى قوة الجمهور وغائيته، بوصفه طاقة معرفة ووجود متجسِّدة، ودائمة الانفتاح على الممكن. وفي عصر الرأسمالية المتأخرة، يتجسد مفهوم الجمهور في **العامل الجماهيري**، ولعل أهم ما يميّزه، إضافة إلى شخصيته الاجتماعية التابعة لنمط الإنتاج، كفاحه الذي يجمع بين النضال الذاتي لرفض العمل المأجور في المصنع من جهة، وتوسيع قدراته وطاقته لتصبح شاملة لآليات إعادة الإنتاج الاجتماعية من جهة ثانية. وبالتالي فإن برنامجه يرمي إلى خلق **البديل** الواقعي لنظام السلطة الرأسمالية(٦٧).

وبالنسبة لفيرنو، يتميز الجمهور باستقلاله السياسي من ناحية ونشاطه الإنتاجي من ناحية أخرى، وبالتالي ينظر إليه بوصفه موضوعًا سياسيًا يستند إلى ملكة اللغة في المقام الأول. ويبدأ فيرنو بنقد ما ذهب إليه «توماس هوبز» (Thomas Hobbes) (١٥٨٨–١٦٧٩) من أنه عن طريق اللغة استطاع البشر أن يسموا من العقلية السلبية المماثلة لعقلية الحيوانات، إلى اكتساب القدرة على التفكير، وامتلاك الشخصية والفردية. ومن خلال اللغة أيضًا استطاعوا الحد من ظواهر الصراع والشجار وعدم الثقة المتبادلة (في حالة الطبيعة) إلى حالة المجتمع المنظم، مع ملاحظة أن فرضية حالة الطبيعة في تصور هوبز تشير إلى الحالة التي أتقن فيها البشرُ اللغةَ واستطاعوا التعبير عن أنفسهم. وبعبارة أخرى فإنها ليست حالة سابقة على ظهور اللغة ونوع الاتفاق على معاني الكلمات الضرورية للمجتمع البشري، وإنما هي الحالة التي اكتسب فيها البشر ما يمكن تسميته باللغة الطبيعة الثانية(٦٨).

وتقوم فكرة المجتمع المنظم عند هوبز على أساس مفهومه عن الشعب الموحد، أو وحدة الأفراد من خلال عقد اجتماعي، وبالتالي فهي لا تعترف بفكرة الجمهور، وأي حشود إنما هو أمر مرفوض. لكن ما يقول به هوبز عن المجتمع

---

(٦٧) المرجع السابق، ص ص. ٥٧٧–٥٧٨، ٥٧٩–٥٨٠.

(68) Pettit, Philip: **Made with Words: Hobbes on Language, Mind, and Politics**, Princeton, NJ: Princeton University Press, 2008, P. 98.

المنظم لم يكن موجودًا فعليًا في مجتمعات الستينيات والسبعينيات وما بعدها، فقد انهار التمييز الهوبزي بين الداخل الآمن من ناحية والخارج المجهول والعدائي من ناحية أخرى، وبدأ الجمهور يشعر بأن وطنه غريب عنه. ومن هنا ففي حين «تصور هوبز حركة الانتقال من الأفراد المنعزلين إلى شعب موحد، فإن هذا المنطق الجديد عند فيرنو ينطوي على حركة انتقال من كثرة أو مجموعة عامة (تتميّز بالقدرات البيولوجية التي تمتلكها الأنواع البشرية، بما في هذا ملكة اللغة العامة، وعلاقات الإنتاج السابقة على الإنتاج الفردي) إلى أعضاء متفردين من الجمهور»(٦٩).

ومن هنا يذهب فيرنو إلى أن «الجمهور» ليس مجرد فكرة سلبية كما يراها هوبز الذي ركّز على فكرة الوحدة والإذعان لصاحب السيادة المطلقة، وإنما هو مفهوم ثري يسمح لنا بفحص الاختلافات والصفات المميزة للجنس البشري، وبالتالي يتصف بالتعددية، وهي تعددية مخالفة لما تقول به الليبرالية من ناحية وما تدعو إليه الاشتراكية الديمقراطية من ناحية أخرى، على نحو ما سنبين أدناه. لكن التساؤل هنا: **لماذا يعول فيرنو على هذا المفهوم تحديدًا؟**

إذا نظرنا إلى حقبتي الستينيات والسبعينيات، سنجدها شهدت مجموعة من الثورات وبعضها نجح لكن أكثرها أخفق في الوصول إلى المجتمع العادل. وهنا يقرر فيرنو أن الجماهير هم ورثة هذه الثورات الفاشلة. وفي خضم هذه التغيرات المفاجئة والسريعة التي قلبت أشكال الحياة التقليدية، لم تجد الجماهير مجتمعات أساسية أو عادات ثابتة وتقاليد مشتركة يمكن من خلالها إشباع رغبتها في الأمن والحرية والعدالة، بل وجدت نفسها أمام حالة من القابلية للتغير الدائم في الحياة، وكان عليها مواجهة خبرات الشك وعدم اليقين، الأمر الذي قادها إلى الدخول في علاقة مباشرة ومستمرة مع العالم، في ظل مجالات غامضة ومبهمة(٧٠).

---

(69) Clark, Samuel: "**Review of (A Grammar of the Multitude)**", *Political Theory*, Vol. 33, No. 5 (Oct., 2005), P. 736.

(70) Virno, Paolo: **A Grammar of the Multitude**, P. 33.

(ISSN: 2536 - 9555)

وفي ظل هذه الأجواء من عدم الاستقرار والغربة، بدأ الجمهور يبحث عما يسميه فيرنو الموارد الأساسية التي يمكنه الاعتماد عليها لحماية نفسه من حالة عدم اليقين، ومن بين هذه الموارد التي يمتلكها تلك الأدوات اللغوية والفكرية الوحيدة التي كانت متاحة أمامه، أو ما يسميه فيرنو «الأماكن المشتركة» Common Places (topoi koinoi). ويُقصد بها تلك التعبيرات النمطية، التي أصبحت الآن خالية من أي معنى، وكذلك الروابط التافهة، والاستعارات التي لا حياة فيها، والأعراف اللغوية. ومثل هذه «الأماكن» ظواهر مشتركة لأنه لا يمكن لأحد أن يستغني عنها (من الخطيب المهذب إلى السكير الذي يتمتم بكلمات يصعب فهمها، ومن رجل الأعمال إلى القائد السياسي[٧١]. وفي ضوء هذا تمتد «الأماكن المشتركة» لتشمل «الملكات اللغوية المعرفية المشتركة بين النوع الإنساني (أو الجمهور) ككل»[٧٢].

وفي ضوء هذا، فإن مفهوم الجمهور يشير في وقتنا الراهن إلى جميع الذين يعملون تحت حكم رأس المال، وبالتالي فإنه مفهوم ينطوي على الطبقة المؤلفة ممن يرفضون حكم رأس المال وسيطرته. ومن هذه الزاوية يختلف هذا المفهوم عن مفهوم البروليتاريا على الأقل، عندما جرى توظيف المفهوم الأخير في القرنين التاسع عشر والعشرين. فالبروليتاريا مفهوم محدود وقائم على الاستبعاد بصورة أساسية. وفي أكثر مفاهيمها المعروفة والمحددة، لا تشير البروليتاريا إلا إلى العمال الصناعيين، لذا فإنها تستثني جميع الطبقات العاملة الأخرى. وفي أوسع مفاهيمها، تدل البروليتاريا على جميع العمال الذي يستخدمون الأجهزة، وبالتالي يستثني مفهومها الطبقات غير المأجورة الأخرى، كالباعة الجائلين. كما أن هذا المفهوم يقوم على أساس أنه لا يوجد أولوية سياسية بين أشكال العمل المختلفة:

(71) Ibid, PP. 35-36.
(72) Ibid, P. 42.

فجميع أشكال العمل اليوم ذات طبيعة انتاجية من الناحية الاجتماعية، وهي تقوم على فكرة الإنتاج المشترك، وما يجمعها هو مقاومتها لسيطرة رأس المال(٧٣).

وهكذا فإن مفهوم الجمهور أوسع من مفهوم البروليتاريا، لأنه يشير إلى جميع صنوف العمال الذين يتعاونون ويصيرون في علاقات مشتركة. وهذا لا يعني أن طبقة العمال الصناعيين- أو البروليتاريا- هي طبقة غير مهمة، وإنما يشير إلى أنها لا تحوز على امتياز سياسي داحل الجمهور بالنسبة إلى الطبقات الأخرى. ومن ناحية أخرى ففي مقابل ظاهرة الاستغلال التي تعيش فيها البروليتاريا، فإن مفهوم الجمهور منفتح وموسَّع؛ إنه مفهوم يوفِّر للبروليتاريا تعريفها الأشمل الذي يضم جميع من يعملون وينتجون تحت سيطرة رأس المال(٧٤). غير أن أهم ما يميّز مفهوم «الجمهور» كونه تعبيرًا سياسيًا جديدًا عن العمل الذي يتجنب التوحيد القمعي في الواحد (الدولة، الأمة، أو «العظمة» الثقافية)، وبهدف فهم كيفية التفكير في نمط الوحدة، وكيف تعمل الأشكال الجديدة من التجمعات الصغيرة وكيف يمكن للمرء أن يفسر انتشارها المتفجر وإبداعها(٧٥).

ومع هذا، فإن مفهوم الجمهور يمكن أن نصفه بأنه **بروليتاريا جديدة**، لكنه لا يمثل فقط **طبقة عمال صناعية جديدة**. والفرق بين الاثنين فرق جوهري. فالبروليتاريا الجديدة هي مفهوم عام يشير إلى جميع أولئك الذين يتعرض عملهم للاستغلال من جانب أرباب العمل أو أصحاب رأس المال، وهي بذلك تعني الجمهور المتعاون بصفة إجمالية. أما الطبقة العاملة الصناعية (التي كان يقصدها ماركس)، فلم تكن تمثل إلا لحظة **جزئية** في تاريخ البروليتاريا وثوراتها، خلال الفترة التي كان فيها رأس المال قادرًا على اختزال القيمة إلى مقياس محدد، حيث بدا الإنتاج محصورًا بعمل العاملين بالأجرة وحدهم في تلك الفترة، مما جعل سائر قطاعات العمل الأخرى تظهر كما لو كانت متركزة فقط، على إعادة

---

(٧٣) هارت، مايكل: **الحرب والديمقراطية في عصر الإمبراطورية**، ص ص. ١٩٧-١٩٨.

(٧٤) المرجع السابق، ص ص. ١٩٨-١٩٩.

(75) Penzin, Alexei: "**The Soviets of the Multitude**", P. 81.

(ISSN: 2536 - 9555)

الإنتاج، بل وحتى غير منتجة. وفي مقابل هذا، فإن إنتاج رأس المال لا يلبث، في السياق السياسي الحيوي الراهن، أن يندمج، أكثر فأكثر، في ظل إنتاج وإعادة إنتاج الحياة الاجتماعية؛ وبالتالي فإن الحفاظ على التمايز بين أشكال العمل الإنتاجية وغير الإنتاجية في عصرنا يصبح أكثر صعوبة بصورة مضطردة. ولهذا يقوم العمل– ماديًا كان أم غير مادي، عقليًا كان أم جسديًا– بإنتاج الحياة الاجتماعية وإعادة إنتاجها، متعرضًا لاستغلال رأس المال بصفة دائمة[٧٦].

إن هذا المجال الفسيح للإنتاج السياسي الحيوي[*] يتيح فرصة الكشف عن الطبيعة الكلية لمفهوم البروليتاريا اليوم. وكذلك فإن التمايز التدريجي بين الإنتاج وإعادة الإنتاج في السياق السياسي الحيوي يسلط الضوء على استحالة قياس الزمن والقيمة. فمع انطلاق العمل خارج أسوار المصنع يغدو الحفاظ على خرافة أي مقياس أو معيار ليوم العمل، وفصل وقت الإنتاج عن وقت إعادة الإنتاج، أو وقت العمل عن وقت الفراغ، أمرًا متزايد الصعوبة بصورة مضطردة. فليس ثمة أي

---

(٧٦) هاردت، مايكل، وأنطونيو نيغري: **إمبراطورية العولمة الجديدة**، ص ص. ٥٧٠–٥٧١.

(*) من الجدير بالذكر أنه في السنوات الأخيرة، تطورت الأبحاث في مجال السياسة الحيوية Biopolitics لسببين: يتمثل السبب الأول في الانخراط النظري والفلسفي المتزايد والمتطور في دراسة مشكلة الضبط والتنظيم الصارمين لحياة الأفراد، وهو ما وجدناه في تفصيل ميشيل فوكو لمفاهيم مثل السلطة والتحكم وغيرها من ناحية وردة الفعل الإيجابية والمثيرة لمفاهيمه من جانب «جورجيو أجامبين» (Giorgio Agamben) و«نيجري» و«روبرتو إسبوزيتو» (Roberto Esposito) و«فيرنو»، حيث يؤكدون ضرورة دراسة المشكلات الأساسية مثل: كيف نفهم السياسة الحيوية؟ وكيف تختلف عن التقنيات التقليدية للسلطة، والسيادة على وجه الخصوص؟ وهل السياسة الحيوية ظاهرة حديثة بشكل واضح وما إلى ذلك؟ أما السبب الآخر فيتمثل في محاولة هؤلاء الفلاسفة الكشف عن الجانب الملموس لمشكلة الضبط والتنظيم الصارمين المجالات الحديثة للتكنولوجيا وتاريخ العلوم والأنثروبولوجيا الثقافية ودراسات النوع الاجتماعي والعلاقات الدولية وما إلى ذلك.

(Scholar, Research: "**Biopolitical Philosophy of Hardt and Negri: A Critical Study**", *M. A. Thesis in Philosophy,* University of Delhi, 2020, P. 50).

ساعات زمنية محددة عند مداخل ساحة الإنتاج السياسي الحيوي، وبالتالي تصبح البروليتاريا الجديدة دائبة على الإنتاج بصورة كلية، في جميع الأماكن، وعلى امتداد ساعات اليوم كلها(٧٧).

وفي هذا الصدد نلاحظ أن الآلات والتكنولوجيا ليست كيانات محايدة ومستقلة بطبيعتها: إنها أدوات سياسية حيوية موظفة في أنظمة إنتاج وتيسّر ممارسات معينة، وتحرِّم أخرى. ومن هنا فإن عمليات بناء الجمهور تتجاوز هنا عتبة أساسية حين يجد الجمهور نفسه أشبه بآلة، وحين يتصور إمكانية اعتماد توظيف جديد للآلات والتكنولوجيا لا يستتبع تصنيف كـ«رأسمال متحول»، كجزء داخلي من آلية إنتاج رأس المال، بل يقدمها بالأحرى عُنْصرَ إنتاج مستقلًا. وفي عملية العبور من الصراع حول معنى اللغة إلى بناء منظومة آلات جديدة، فإن ما يتم بناءه لغويًا يمكن أن يكون قادرًا على أن يصبح تقدمًا جسديًا دائمًا للرغبة في ظل الحرية. ومن هنا لم تَعُدْ عملية تهجين البشر لا تتم إلا في أطراف المجتمع وهوامشه؛ بل باتت بالأحرى حدثًا رئيسيًا في صلب عملية التأسيس للجمهور وسلطته(٧٨).

وعلى أي حال، فإن مفهوم «الجمهور» هو المعادل الموضوعي للوجود السياسي لـ«الكثرة» the many كما يوجدون في تعدديتهم الراهنة. وعلى هذا النحو فإن هذا المفهوم (الجمهور) ينأى عن منظور الوحدة في مقابل التعددية، لأن هذا المنظور الأخير يتعامل مع الطبقة كما لو أنها مجرد مفهوم تجريبي–حسي، ويخفق في اعتبار المقدار الذي تُعرف به الطبقة ذاتها من الناحية السياسية. وبالتالي يبدو هذا المفهوم مخالفًا لما يقول به التقليد الليبرالي عن الطبقة بوصفها نموذجًا اقتصاديًا بحتًا. فالطبقة مفهوم اقتصادي وسياسي أيضًا، حيث أن نظرية الطبقة لا تعكس الخطوط القائمة للصراع الطبقي فحسب، بل تقترح خطوطًا

---

(٧٧) هاردت، مايكل، وأنطونيو نيغري: **إمبراطورية العولمة الجديدة**، ص. ٥٧١.
(٧٨) المرجع السابق، ص. ٥٧٤.

(ISSN: 2536 - 9555)

سياسية مستقبلية ممكنة أيضًا. ومهمة نظرية الطبقة من هذه الناحية تتمثل في تحديد الأحوال الموجودة للصراع الجمعي الممكن والتعبير عنها كفرضية سياسية. وبالتالي تُعَدُّ الطبقة في حقيقة الأمر بناءً تأسيسيًا، وهي مشروع اقتصادي وسياسي كذلك(٧٩).

وفي ضوء هذا فإن مفهوم الجمهور لا يتلاقى مع النظرية الليبرالية للطبقة الاقتصادية التي تميز بين منظور الوحدة ومنظور التعددية في دراسة الطبقة. فالجمهور مفهوم ذو طابع تعددي لا يمكن اختزاله، والفروق الاجتماعية والفردية التي تؤلفه يجب التعبير عنها دائمًا بأنها لا يمكن تحويلها إلى مجرد تشابه في وحدة هُوية أو إلى حياد، وبالتالي فالجمهور ليس مجرد تعددية عمياء مبعثرة. ومن ناحية أخرى، فبالرغم من تصدّع الهويات الحديثة فإن هذا لا يمنع الوحدات المفردة ذات الخصوصيات من العمل المشترك. وباختصار، فإن الجمهور يضم الأفراد ذوو الخصوصيات الذين يعملون معًا. وجوهر هذا التعريف يؤكد في الحقيقة أنه لا يوجد تناقض فكري أو فعلي بين الفرد والجماعة(٨٠).

لكن السؤال الذي يطرح نفسه الآن: **كيف ينظر فيرنو إلى ماهية الفرد ووجوده؟ وهل وجود الفرد يسبق وجود الجماعة؟**

يوضح فيرنو زيف التفرقة التقليدية بين الفرد والمجتمع بأنه لا يميل إلى التحيز إلى «الجماعي» على حساب «الفردي»، لأن كليهما يتشابك ويتداخل مع الآخر، وعلى حد قوله: «عندما نتحدث عن عملية أو مبدأ التفرد، يجب أن نضع في اعتبارنا بوضوح ما يسبق التفرد نفسه. وهذا يتعلق، في المقام الأول، بذلك الواقع السابق على ما هو فردي Pre-individual Reality؛ أي بالشيء المشترك والكلي وغير المتمايز. ومن ناحية أخرى، فإن العملية التي تنتج التفرد لها **(بداية)** غير فردية، أو سابقة على ما هو فردي. فالتفرد يجد أصوله في نقيضه. وبالتالي

---

(٧٩) هارت، مايكل: **الحرب والديمقراطية في عصر الإمبراطورية**، ص ص. ١٩٤–١٩٥.
(٨٠) المرجع السابق، ص. ١٩٦.

يبدو أن الطبيعة الفردية للجمهور تشترك في شيء ما مع الفكر الليبرالي لأنها تقدر الفردية، لكنها في الوقت نفسه تنأى عنه جذريًا لأنها المنتج النهائي لعملية التفرد ذاتها التي تنبع من الكلي، والعام، والسابق على ما هو فردي»[٨١].

وفي ضوء هذا يرفض فيرنو تلك الثنائية التي سادت في الفكر السياسي المعاصر بين الفردية والجماعية، ويصف الجمهور بأنه «**مجموع (الأفراد الاجتماعيين)**». ويبرر هذا بأن ثمة تسلسلًا دلاليًا ذا أهمية بين الوجود السياسي للكثرة ككثرة، والمسألة الفلسفة القديمة المتعلقة بمبدأ الفردانية، وبينها وبين المفهوم الماركسي للفرد الاجتماعي (بوصفه علاقة لا تنفصم بين التفرد المشروط والواقع السابق على ما فردي). ويتيح لنا هذا التسلسل الدلالي إعادة تعريف طبيعة ووظائف المجال العام والعمل الجماعي بشكل جذري. وبطبيعة الحال، فإن إعادة التعريف هذه تخالف التقليد الأخلاقي والسياسي القائم على فكرتي (الشعب) وسيادة الدولة. ولهذا يمكننا أن نقول مع ماركس– ولكن أيضًا على عكس شريحة كبيرة من الماركسيين– إن التحول الجذري للحالة الراهنة للأشياء يتمثل في إعطاء أقصى قدر من الأهمية والقيمة القصوى لوجود كل فرد من أفراد الجنس البشري. وبقدر ما قد يبدو هذا الأمر متناقضًا، يجب قراءة ماركس اليوم بوصفه مُنظِّرًا صارمًا، وواقعيًا للفرد، وبالتالي للتفرد أو الفردانية[٨٢].

وعلى هذا النحو لم يتخل فيرنو عن الفردية على عكس ما قد يُفهم من حديثه، وليست هناك مخاوف من الاندماج الذي يُخشى منه غالبًا بين الفرد والجماعة، أو اختزال الفرد في الجماعة، عندما تثار قضايا الجماعية. وقد أكد فيرنو على عدم التعارض بين الفردية والجماعية بقوله: «الجماعية، التي تجسد خبرات الجمهور وحياته ليست، كما نعتقد عادة، هي المجال الذي تتضاءل فيه السمات البارزة للفرد ذي الطبيعة الخاصة أو تختفي؛ على العكس من هذا، فهي مجال لتفرد جديد وأكثر تأليفًا أو تركيبًا. فمن خلال المشاركة في الجماعية، فإن الذات، بعيدًا

(81) Virno, Paolo: **A Grammar of the Multitude**, PP. 76-77.
(82) Ibid, P. 80, Virno, Paolo: **When the Word Becomes Flesh**, P. 233.

(ISSN: 2536 - 9555)

عن التنازل عن سماتها الخاصة الأكثر تفردًا، لديها الفرصة للتفرد الحقيقي، على الأقل جزئيًا، في جزء من الواقع السابق على ما هو فردي الذي يحمله جميع الأشخاص داخل أنفسهم... وفقط ضمن الجمهور، وبالتأكيد ليس ضمن الذات المعزولة، يمكن لملكة اللغة أن تأخذ شكل خبرات ذات طابع فردي أصيل»(٨٣).

ومن هذا المنطلق يذهب فيرنو إلى وجود أساس مشترك للتبادل اللغوي، والكلام، في فعل الجمهور. وهو ما يعني أن الفرد جزء لا يتجزأ من نسيج المجتمع، ووجوده ليس سابقًا على الجماعة وانما يتحدد من خلالها وبواسطتها. وفي رأي فيرنو أن الفكرة التقليدية عن «المجتمع» Community إنما تحمل عيبًا أساسيًا: فهي تهمل مبدأ التفرد Individualization، أي عملية تكوين التفردات من شيء تشترك فيه جميع أصوله وعناصره. ومن هنا لا يبدو منطق التعدد والتفرد كافيًا، ونحن بحاجة إلى التركيز على ما يسميه فيرنو «الجمهور الذي يتألف من تفردات» (Multitude of Singularities). أما المفهوم التقليدي عن المجتمع فإنه يتهرب من الحديث عن «الواحد» the One. ومع هذا، فإن الوجود السياسي لـ«الكثرة» the many بوصفه «عدد كبير من الأفراد» أمر متجذر في نطاق متجانس ومشترك؛ ويأتي من مرجعية غير شخصية(٨٤).

ويمضي فيرنو حيث يذهب إلى أنه بالنسبة لمفهوم «الواحد»، فعنده يظهر التعارض بوضوح بين مفهومي «الناس» People و«الجمهور» Multitude. والأهم من هذا، أن هناك انقلابًا في ترتيب الأشياء: فبينما يميل كل واحد من الناس إلى أن يكون واحدًا لا أكثر، ينبع الجمهور من الواحد نفسه. وبالنسبة لمفهوم الناس، فإن الواحد بمثابة وعد لم يتحقق بعد؛ أما بالنسبة إلى «الجمهور»، فإنه يمثل الوعد ذاته. وبالتالي، فإن مفهوم المجتمع إنما يتجاهل أيضًا تعريف ما هو عام أو مشترك. فما ينجذب إليه الناس هو الدولة، صاحبة السيادة، والإرادة العامة. وبدلًا من هذا، فإن مفهوم «الواحد» الذي يحمله (الجمهور) في طياته إنما

(83) Virno, Paolo: **A Grammar of the Multitude**, P. 79.
(84) Penzin, Alexei: "**The Soviets of the Multitude**", P. 84.

يتألف من اللغة، أعني العقل كمورد عام أو كمورد نفسي بين الذوات الفردية Interpsychical، ومن الملكات العامة للأنواع. وإذا كان مفهوم الجمهور يتجنب مفهوم وحدة الدولة، فذلك ببساطة لأنه (أي الجمهور) مرتبط بواحد مختلف تمامًا، وهو واحد أولي وليس نهائي. ويمكننا أن نقول: إن الواحد الخاص بالجمهور إنما يتوازى بطرق مختلفة مع هذا الواقع الذي يتجاوز ما هو فردي transindividual والذي يطلق عليه ماركس «العقل العام» (General Iintellect) أو «العقل الاجتماعي». ويتوافق «العقل العام» مع اللحظة التي تصبح فيها القدرة البشرية العادية على التفكير بالكلمات القوة الإنتاجية الرئيسية للرأسمالية المتطورة. ومع هذا، فإنه يمكن أن يشكّل أيضًا أسس جمهورية فقدت خصائص سيادة الدولة(٨٥).

وفي ضوء هذا يذهب فيرنو إلى أن مفهوم «المجتمع» يُعَدُّ مفتقرًا إلى الأبعاد السياسية: فهو يأخذ في الحسبان بعض الجوانب العاطفية والوجودية للجمهور: وباختصار، يركّز على أسلوب أو طريقة الحياة فقط. وعلى الرغم من أنه مفهوم مهم، فإن الشيء الأساسي الذي يتعيَّن علينا وضعه في الحسبان هو عمل الجمهور وحياته بوصفه المادة الخام لتحديد نموذج سياسي شامل يبتعد عن ذلك الكيان المصطنع المتواضع للدولة الحديثة، الذي يحمل طبيعة بدائية (في ما يتعلق بالتعاون الاجتماعي). وباختصار، إن الشيء المهم هو وجود تصور لعلاقة الواحد بالكثرة بطريقة مختلفة جذريًا عن تلك التي تصوّرها «هوبز» أو «روسو» أو «لينين» أو «كارل شميت» (Carl Schmitt)(٨٦).

من هنا يعتمد فيرنو على مفهوم «العقل العام» الذي طوّره ماركس في كتابه «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي»، والذي يشير من خلاله إلى الجماعة البشرية الاجتماعية التاريخية التي تجسد نمطًا معينًا من الإنتاج بطريقة واعية زادت أو ضعفت. لكن يبدو أن فيرنو يستعمل هذا التعبير في ضوء مصطلحات وجودية مخففة تعود إلى التركيز على موضوع اللغة، ومن هنا فإن «العقل العام»

(85) Ibid.
(86) Ibid, PP. 84-85.

(ISSN: 2536 - 9555)

هو الذي سيصبح موضوعًا لغويًا وسياسيًا محتملاً، في «الجمهور» المنخرط في إنتاج العمليات المعرفية الجديدة للتراكم الرأسمالي.

وهنا يبدو فيرنو مُقْتَفيًا خطى «هيردر» (Johann Herder) (١٧٤٤–١٨٠٣) ومبتعدًا كلية عن «روسو» (١٧١٢–١٧٧٨)؛ حيث رفض "هيردر" النظر إلى واجبات الفرد أو المواطن وحقوقه وامتيازاته بوصفها تعني خضوع الاهتمامات الفردية والاجتماعية أو التنازل عنها لحساب بعض المصالح القومية العليا أو الاهتمامات العامة للمجتمع. ومن هنا حل مبدأ «التعاون المشترك» عند هيردر محل مبدأ «التعاقد والوحدة» عند روسو؛ فإذا كانت الاختلافات الفردية واختلاف المعتقدات والقيم والثقافات تُعَدُّ في نظر روسو من المخاطر التي تهدد وحدة الأمة وتماسكها وتضامنها، انطلاقًا من أن الوحدة تتطلب التوافق الاجتماعي أو مجموعة مُوحَّدة من الآراء والمشاعر التي ترتبط بالصالح العام وتدركه وتتعقبه بطريقة واحدة لا تختلف بين الأفراد– إذا كان هذا هو موقف روسو، فإن هيردر آثرَ إدراك الوحدة من خلال الاختلاف، بل حتى التعارض؛ انطلاقًا من أنه من الطبيعي لكل جماعة أن نجد بين أفرادها– رغم كل ما من شأنه أن يوحد بينهم– شيئًا من اختلاف الرؤى وتعددية الأفكار والمصالح(٨٧).

وعلى أي حال، فإن فيرنو لا يتشبث بالحدود الفاصلة بين الفرد والجماعة، بين الخاص والعام، التي تتميز بها المجتمعات الديمقراطية الليبرالية، كما أن الجماعة ليست مجرد جمهور سلبي كما يقول غلاة الليبرالية. وفي المقابل، يتفق فيرنو مع مفهوم «ليف فيجوتسكي» للجماعة، ورؤيته حول علاقة الجماعية بالتفرد. وتتمثل فكرة فيجوتسكي في أن العلاقة الاجتماعية تسبق وتسمح بتكوين «الأنا» الواعي ذاتيًا. والعنصر الأوليّ في هذه العلاقة هو الجماعة؛ فهناك أولًا «نحن»؛ ومع

---

(٨٧) الجزيري، مجدي: **التنوير والحضارة عند هيردر**، الإسكندرية: دار الوفاء للطباعة والنشر، ط. ٣، ٢٠٠٤، ص. ١٢٢.

هذا– وهنا تكمن المفارقة– فإن كلمة «نحن» هذه لا تعادل مجموع العديد من «الأنا» المحددة جيدًا. وباختصار، حتى لو لم نتمكن بعد من التحدث عن ذوات حقيقية، فلا تزال هناك ذاتية بينية Inter-subjectivity. وبالنسبة لفيجوتسكي، فإن عقل الفرد هو نتيجة لعملية التمايز التي تحدث في المجتمع الأوليّ(٨٨).

إن هذا يعني أن الطبيعة الإنسانية لا يمكن تعريفها من خلال نظرة فرد واحد، منعزل عن نوعه، وبمعزل عن تصوراته وانفعالاته ومعارفه الخاصة. وبدلًا من هذا، تتكون من مجموعة العلاقات القائمة بين عدد كبير من الأفراد. وعليه؛ فبدلًا من التركيز على تفردات خاصة، فإن «مجموعة العلاقات» هذه **تشكل** هؤلاء الأفراد المميّزين في حد ذاتهم. ولذلك فإن الطبيعة البشرية تقع ضمن شيء لا ينتمي إلى أي تفرد بعينه، بل توجد في محيط العلاقة بين الكثرة(٨٩).

ويمضي فيرنو حيث يذهب إلى أنه من الناحية النظرية، فإن عملية بناء الجمهور لا يمكن أن تكون سوى كيان اجتماعي معمم على المستوى الأفقي وتقتصر كل وظيفته على أداءات العمل على أساس اللغة Language-based Labor Performances، ولهذا نكون أمام جمهور مسطح يغيب عنه الوعي، وبالتالي فمن الصعب أن ننسب إليه أداء أفعال الكلام الفعلية Performance of Actual Speech Acts، التي تعتمد دائمًا على تفاعلات المتكلم والمحاور في سياق معين(٩٠).

وعلى أي حال، فمن الملاحظ أن ثمة علاقة وثيقة ومتشابكة ومتداخلة للغة بالثقافة من ناحية والوعي أو الإدراك: فإذا كانت اللغة في معناها الاصطلاحي الضيّق أداة الاتصال الأولى بين البشر، وهي الأصوات التي «يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم»، فإن الثقافة هي الوعاء الذي تنمو فيه اللغة ثُم تحملها وتعبّر

(88) Penzin, Alexei: "**The Soviets of the Multitude**", PP. 82-83.
(89) Ibid, P. 83.
(90) Mecchia, Giuseppina: "**Paolo Virno: From the Language of Labor to the Labor of Language**", P. 496.

(ISSN: 2536 - 9555)

عنها. أمّا الوعي أو الإدراك فهو الذي يتوسّط بين اللغة والثقافة، بين النّصّ والعالم[٩١]. ومن ناحية أخرى، فإن مفهوم الجمهور يحتل مكانة مهمة عند فيرنو، وهو مفهوم يتصف بالطابع «الجماعي» Collective الذي يتضمن تفردات خاصة، وهو مفهوم يعول عليه في مقابل كل المفاهيم الأخرى التي طرحها الفلاسفة المحدثون والمعاصرون. ويشير الجمهور أيضًا عند فيرنو إلى الذاتية السياسية التي تنشأ نتيجة لتشكل ظروف جديدة للإنتاج وأساليب الحياة.

وخلاصة القول، لا يُعَدُّ أي من الفردي والجماعي كافيًا لتفسير مفهوم الجمهور عند فيرنو؛ فهو مفهوم يحوي في طياته الكثير من العلاقات الأفقية والرأسية غير المتصلبة، ويقوم على التوازن بين احترام التفردات والجماعات على حد سواء. ومن ناحية أخرى، نلاحظ أن للجمهور عددًا من الوظائف المكونة والإيجابية والإبداعية، وهي وظائف لا تتم إلا من خلال الفعل الذي تجسده اللغة. وهذا ما يقودنا إلى الحديث– في المحور التالي من البحث– عن ماهية هذا الفعل العام انطلاقًا من أن أفعال اللغة ممارسة سياسية في جوهرها تتوسط بين الثوابت البيولوجية والمحددات التاريخية.

---

(٩١) مزيد، بهاء الدين محمد: **اللغة والثقافة والإدراك: تأصيل العلاقة، مع الإشارة إلى بعض تجلّياتها وثمراتها**، مجلة أبوليوس (كلية الآداب واللغات بجامعة محمد الشريف مساعدية– الجزائر)، المجلد ٨، العدد ١، ٢٠٢١، ص ص. ١٠ وما بعدها.

المحور الرابع
أفعال اللغة كممارسة سياسية تتوسط بين الثوابت البيولوجية والمحددات التاريخية

انطلاقًا من أن ملكة اللغة تتجسد عبر الفعل العام، فإنها بالنسبة لفيرنو ممارسة سياسية في جوهرها تتوسط بين الثوابت الفسيولوجية والبيولوجية والمحددات التاريخية المتغيرة، وهذا ما يتضح من خلال تناوله للغة وعلاقتها بالطبيعة الحسية للوعي والإمكانات الخلاقة للبراعة السياسية، والنفي بوصفه عُملَة اللغة، وغير هذا مما سيتضح في هذا المحور.

أولًا: **اللغة كوسيلة للخلاص**.

إذا كانت اللغة هي الملكة التي تميّز الإنسان في علاقته بالعالم الخارجي، فإنها بهذا المعنى تمثل الإمكانية الأساسية لما يدعوه فيرنو (الشفاء) أو الخلاص. ويوضح فيرنو ما يعنيه بهذا قائلًا: «يصل التعارض بين اللغة كملكة وبين اللغات التاريخية الطبيعية إلى ذروته في فكرة الاعتراف Confession. ولا يبدو التعارض بين الرسالة التواصلية والوظيفة اللفظية البسيطة للغة مؤثرًا إلا في مجال الطقوس والروابط والعلاقات بين البشر. وهنا نجد أن فعل الكلام يؤدي وظيفة دقيقة وأكثر أهمية. فالشخص الذي يخطئ ويعترف بفعل ما هو شر، مثل السرقة بالإكراه أو حتى جريمة قتل، إنما يعبّر عن محتوى "دلالي" Semantic قاسي، أيًا كانت اللغة التي يستعملها، سواء كانت إيطالية أو برتغالية أو أي لغة أخرى. ومع هذا، فمن أجل تبرئته من هذه الجريمة، فإنه لا يملك أي وسيلة أخرى سوى الكلام بصوت عالٍ. وفي هذه الحالة، يشكّل فعل التصريح هذا من جانبه بمثابة المقاومة الوحيدة الفعالة في مواجهة نص الاتهامات»[٩٢].

(92) Virno, Paolo: **When the Word Becomes Flesh**, P. 83.

(ISSN: 2536 - 9555)

وفي ضوء هذا تمثل اللغة الوسيلة الأساسية لدى الإنسان للتعبير عن مشاعره وآماله وآلامه. ولهذا ففي المثال السابق، يرى فيرنو «إن فعل الكلام، الذي يتجاوز حدود اللسان الخاص بالفرد ويصل إلى ملكة اللغة، يكشف عن الشر الذي يصفه، سواء أثبته أو نفاه، وبالتالي يخفف منه ويشفي صاحبه. وفي ضوء الاعتراف هذا، فإن ما يُقال هو، بكل معنى الكلمة، الشر الذي نحتاج إلى التكفير عنه؛ وبالتالي فإن حقيقة الكلام وغايته، وبالتالي اللغة، ليست سوى وسيلة للشفاء Redemptive»[٩٣].

لكن وفي ما يبدو فإن فيرنو لا يقصد بهذا تجاوز العالم المادي نحو آفاق غير حسية؛ فالواقع أن كل شيء في نظره، حتى الفكر والوعي والذات الإنسانية، ناتج عن مادة في حد ذاتها، وهذا ما يتضح في رفضه للاتجاهات المثالية. وقد أكد هذا بقوله: «إن أسس الذاتية Subjectivity لا تصبح أشياء مع مرور الوقت: إنها كذلك منذ البداية. كما أنها لا تظهر نفسها بشكل تدريجي كظواهر حسية: إنها ظواهر محسوسة ومرئية دائمًا. ويظهر الوعي الذاتي، شيئًا فشيئًا، من خلال بدايات جديدة، في عالم المظاهر: إنه موجود دائمًا هناك بالفعل»[٩٤]. ومن هذا المنطلق، يرى فيرنو أن الخطأ الذي وقع فيه الفلاسفة الميتافيزيقيون يكمن في نزوعهم إلى تحديد طبيعة الوعي الذاتي من خلال تطبيق مفاهيم (مثل الجوهر، والبساطة، وعدم القابلية للتجزئة، وما إلى ذلك) عليها وهي مفاهيم لا يمكن تصورها أساسًا دون افتراض وجود «أنا» واعية بذاتها![٩٥].

وفي ضوء تأكيده على الطبيعة الحسية للوعي، يذهب فيرنو إلى أنه على الرغم من أن مقولة «أنا أفكر» تسبق كل الظواهر الحسية، فإنها ليست مقولة أوليّة أو ذات طبيعة لامادية. وهكذا، وفي حين أن الميل إلى التعامل مع الشرط المتجاوز للمعرفة يمكن وصفه بأنه «صنمي»، فإن محاولة «مسح الظواهر

---

(93) Ibid.
(94) Ibid, P. 166.
(95) Ibid, P. 153.

الحسية التي يتجلى فيها هذا الامتياز ويمكن إدراكه» هي مجرد تجسيد، وبالتالي ذات طبيعة أداتية. والأهم من هذا أنه في أساس الوحدة التركيبية للإدراك يوجد فعل وليس فكرة، وأن هذا الفعل لغوي في الأساس. فمقولة «أنا أتكلم» هي الوحدة التركيبية للإدراك بقدر ما يتم تحقيقها وتنفيذها وإدخالها في العالم[٩٦].

ومن وجهة نظر فيرنو، فإن مقولة «أنا أفكر» هي عبارة وصفية Descriptive، لأنها لا تفعل شيئًا أكثر من تأكيد حقيقة نفسية Psychic معينة. ومن ناحية أخرى، فإن هذه المقولة عبارة أدائية Performative تتجاوز العنصر النفسي، وتشارك في الطبيعة الخارجية والطبيعة العينية للممارسة العملية. ومن هنا فإن كلا العبارتين ذات طابع انعكاسي ذاتي، وإن كان هذا بدرجة مختلفة. فـ«أنا أفكر»، ونظرًا لأنها على وجه التحديد نص لغوي، ليست أعلى من حيث المستوى من التأمل الذاتي، ولكنها تعتمد على العبارة الأعلى مستوى «أنا أتكلم». وتشير الأخيرة إلى القدرة على إنتاج نصوص لغوية تظل بالنسبة للأولى إما فرضية ضمنية أو نقطة عمياء. ولذلك فإن الفرق بين «أنا أفكر» و«أنا أتكلم» لا يمكن اختزاله إلى اختلاف في الدرجة؛ بل هو اختلاف أكبر من هذا[٩٧].

ومن هذا المنطلق يذهب فيرنو إلى أن «الوعي الذاتي»، أو الوحدة المتسامية للإدراك Transcendental Unity of Apperception، إنما يتكشفان بالفعل من خلال عبارة «**أنا أتكلم**» وليس من خلال مقولة «**أنا أفكر**». ويوضح فيرنو ما يعنيه بهذا باستكشاف العلاقة بين الاثنين في سياق التمييز الماركسي بين التشيؤ[*] Reification والصنمية Fetishism، وهما ظاهرتان تعبران بشكل سلبي عن طريقتنا المتجسدة في الوجود. ويؤكد فيرنو على الطبيعة المادية لهاتين

---

(96) Ibid, P. P. 152, 160-161.
(97) Ibid, P. 162.
(*) يُقصد بالتَشيُؤ، في معناه الواسع، تحوُّل العلاقات بين الأفراد إلى علاقات بين أشياء تتجاوز سيطرتهم عليها، وبالتالي يتم معاملة الأفراد بوصفهم موضعًا للتبادل. وبالتالي يصبح الإنسان مفعولًا به لا فاعلًا في ظل عالم الأشياء.

(ISSN: 2536 - 9555)

الظاهرتين، حيث يذهب إلى أنه يمكن لأشكال الحياة التاريخية والاجتماعية (وبالطبع تمثيلاتها النظرية) أن تكتسب طابعًا «صنميًا» أو «مغتربًا» عندما «تخفي» أو «تشوّه» فهم وتفسير الطبيعة البشرية. ولهذا فبينما يكون الاغتراب ظاهرة سلبية، فإن أسس الصنمية تكمن في أنها تصدر عن نوع من الطموح البنيوي لاشتقاق هوية الذات من المتطلبات المنطقية واللغوية لمقولة «**أنا أفكر**». وفي مقابل هذا، فإن التشيؤ هو حالة انطولوجية يمكن، مع هذا، أن تظهر نفسها على هذا النحو، أو– على العكس من هذا– يمكن أن تتخذ قناعًا زائفًا للاغتراب والصنمية(٩٨).

يُفهم من هذا أن الصنمية والتشيؤ كليهما يتضمنان طابع تاريخي وعرضي ومحسوس. وإذا كان التشيؤ يشير إلى وجود انفصال بين نشاط العمال البدني وبين ماهيتهم الإنسانية، فإن فيرنو يذهب إلى أن التشيؤ لا يمكن أن يقع إلا عندما تظهر واحدة أو أكثر من الملكات الأساسية لدى الإنسان– وعلى رأسها اللغة– في عالم الظواهر، وتصبح محسوسة وجلية، وتقدم نفسها للنظر في المجال العام. ويضيف فيرنو بأن «التشيؤ» ظاهرة مغايرة «للاغتراب»؛ حيث تشير الأخيرة إلى الحرمان والسلب(٩٩).

ومن ناحية أخرى يذهب فيرنو إلى أن الإنسان في ظل الرأسمالية المتأخرة «لم يَعُدْ يبدو كنتيجة لفقر العلاقات الاجتماعية– كما هو الحال في الأنظمة الاقتصادية السابقة على ظهور الرأسمالية– بل كنتيجة لعالمية هذه العلاقات المعترف بها»(١٠٠). ومن هنا يكون الفرد أمام معيار مختلف للإنتاجية، حيث لم يَعُدْ العمل يعتمد على أساس ضرورة المحافظة على الذات أو «توفير الوقت»، بل على الوقت المتنوع للتخطيط الواعي للنشاط. وهذا هو ما ألمح إليه ماركس عندما

(98) Virno, Paolo: **When the Word Becomes Flesh**, P. 166.
(99) Joseph, Branden W.: "**Interview with Paolo Virno**", PP. 33-34.
(100) Virno, Paolo: "**Dreamers of a Successful Life**", Trans.: Jared Beckerin, in: S. Lotringer and C. Marazzi (ed.), *Autonomia: Post-Political Politics*, Los Angeles: Semiotext(e), 2007, P. 116.

تحدث عن أن المؤلف الموسيقي ومبدع العمل الفني في ظل نمط الإنتاج الرأسمالي يمكن توقع منتجه من حيث شكل الإنتاج[١٠١].

ومن الملاحظ أن رأس المال اليوم لا يتحكم في ساعات العمل فحسب، بل يمتص وجود العامل بأكمله، إضافة إلى أفكاره ورغباته. وهذا يعني أن رأسمالية ما بعد الحداثة لا تنتج الاغتراب بالضرورة، لأن ما نسميه اليوم «الطبيعة البشرية» أصبح بمثابة «المادة الخام» الأساسية التي يعمل من خلال الإنتاج الرأسمالي. وهنا يتم تفسير «الطبيعة البشرية» على أنها مجموعة من «الثوابت الأنثروبولوجية الحيوية»، وكنوع من الإمكانية التي تشير إلى «الانفتاح على العالم» (أي غياب البيئة الثابتة)، وما إلى ذلك[١٠٢]. غير أن هذه الثوابت الأنثروبولوجية تصبح في رأي فيرنو سمات اجتماعية للقوى العاملة في مرحلة المجتمعات الرأسمالية المتأخرة، وتعبّر عن نفسها في شكل من عدم الاستقرار الدائم، والمرونة، والحاجة إلى التصرف في مواقف لا يمكن التنبؤ بها[١٠٣].

وفي ضوء ما سبق، يبدو فيرنو متأثرًا بتفرقة ماركس بين «التشيؤ» و«الاغتراب»، فهما مصطلحان يحددان صيرورة الفرد نفسها لكن من زاويتين مختلفتين: فإذا كان الأول يتعلق بالإحساس بالفقدان الذي يشعر به الوعيُ حين تتم مواجهته بموضوعٍ ما في سياق سيطرة رأس المال؛ فإن الثاني يشير إلى المواجهة بين الوعي والواقع الخارجي، وإلى خلق وعيٍ مستقل ذاتيًا[١٠٤].

ثانيا: إمكانات البراعة السياسية.

إذا كان فيرنو قد انتهى إلى أن اللغة كملكة لا يمكن أن تتجسد إلا من خلال الفعل في جميع مجالات الخبرة الإنسانية، فإنه مجال السياسة، على سبيل المثال، لا يتعامل الأفراد مع سلع يمكن إنتاجها بل مع خيرات تجسد ماهيتهم. وهنا تكمن

---

(101) Ibid, P. 117.
(102) Virno, Paolo: "**Natural-Historical Diagrams**", PP. 131-132.
(103) Penzin, Alexei: "**The Soviets of the Multitude**", P. 85.
(١٠٤) بيراردي، فرانكو: **الروح في العمل من الاستلاب إلى الاستقلال الذاتي**، ص. ٢٥.

(ISSN: 2536 - 9555)

المشكلة الأساسية وهي مشكلة مزدوجة: يتمثل جانبها الأول عندما تكون السياسة ذاتها مجالًا للإنتاج– إنتاج عدد كبير من السلع والأشياء– وليست مجالًا للخلق والإبداع في ضوء ملكة اللغة. أما الجانب الثاني فيكمن في تأثير الاقتصاد على السياسة، أو تحريف الأول للثاني؛ فالعامل المغترب والمتشيء إنما يقتصر دوره على إنتاج السلع، وبالتالي تمتد سيطرته إلى دائرة السياسة ويتم التعامل مع السياسة ذاتها في ضوء عمليات أدائية مستمرة.

ومن هذا المنطلق يركّز فيرنو على استعادة الفعل السياسي من منظور ما يسميه «البراعة» Virtuosity. والنشاط القائم على البراعة هو أي نشاط يجد، أولاً، تحقيقًا خاصًا به وهدفًا خاصًا به في حد ذاته، دون أن يتجسد بحد ذاته في منتج. وثانيًا، إنه نشاط يتطلب وجود الآخرين. وفي ضوء هذا يربط فيرنو البراعة الأدائية بالفعل السياسي العام، وينتقد مفهوم السياسي الذي يسود في أشكال العمل الجديدة في الرأسمالية. فكل فعل سياسي ينبغي أن يقوم على البراعة، كما أن كل أفعال البراعة ذات أبعاد سياسية في جوهرها(١٠٥).

لكن كيف يمكن تحقيق ذلك؟ وكيف السبيل إلى حل المشكلة المتمثلة في تحول الفعل السياسي إلى مجال للإنتاج من ناحية، وتوسع رأس المال وسيطرته على الفعل السياسي من ناحية أخرى؟

يذهب فيرنو إلى أنه يمكن الخروج من هيمنة الرأسمالية من خلال «التحالف بين العقل العام والفعل السياسي من ناحية، والحركة نحو المجال العام للعقل من ناحية أخرى». ولا يقصد فيرنو بالخروج بذلك طرح استراتيجية وجودية دفاعية، بل على العكس تمامًا: فما يعنيه بالخروج هو «نموذج كامل للفعل السياسي يكون قادرًا على مواجهة تحديات السياسة الحديثة». وبالتالي فإن «العقل العام» الذي هو قوة فكرية لدى الجمهور إنما ينصب في المقام الأول على التأكيد على «الملكات المعرفية اللغوية العامة لدى الجمهور»(١٠٦).

(105) Virno, Paolo: **A Grammar of the Multitude**, P. 53.
(106) Virno, Paolo: "**Virtuosity and Revolution**", P. 196.

وفي هذا الإطار يذهب فيرنو إلى أن العصيان المدني يصبح شرطًا ضروريًا للفعل، ولكن ينبغي النظر إلى العصيان المدني على النحو السليم، وينبغي أن يتحرر من المبادئ الليبرالية التي تغلفه. وهذا ما يوضحه فيرنو بقوله: «لا يعني العصيان المدني مجرد محاولة لإلغاء قوانين معينة انطلاقًا من كونها غير عادلة أو غير متسقة مع قواعد العدالة الأخرى، أو تتعارض، على سبيل المثال، مع أحكام الدستور؛ ففي مثل هذه الحالة، فإن عدم الطاعة لن يعني سوى ولاء أعمق لسلطة الدولة. بل على العكس تمامًا، فإن أسس العصيان المدني يجب أن تثير الشكوك حول قدرة الدولة ذاتها على القيادة وفرض القوانين والأوامر»[١٠٧].

من هنا يعول فيرنو على العصيان المدني الراديكالي، الذي يمثل الشكل الأساسي للفعل، شريطة أن يتحرر من سطوة الأيديولوجية الليبرالية الرأسمالية[١٠٨]. وهنا يبدو فيرنو متفقًا مع «باولو فريري» (Paulo Freire) (١٩٢١-١٩٩٧) الذي أكد أن القاهرين يستهدفون دومًا إخضاع المَقْهورين، وذلك عن طريق تحريف وعيهم بواقعهم الاجتماعي، وتضليلهم، وتعطيل قدراتهم على الإبداع، وتعميق الهوة التي تفصل بين تفكيرهم المشترك. ومن هنا تأتي «استثارة الوعي» (Conscientization)؛ أو بثّ روح المبادرة إلى الفعل الثوري، وهذا ما يسميه فريري: «ذاتية النضال من أجل التغيير»، ويَعْنِي به الوعي النقدي بظروف القهر، وضرورة تغييرها. فالواقع القهري هو نتيجة حتمية للتناقض القائم بين القاهرين والمَقْهورين، كما أن واقع القهر يبدو أكثر فاعلية، بل ويتحقق بشكل موضوعي حِينَ نضيف إليه اعترافًا بحقيقته، وذلك هو ما يقابل العلاقة الجدلية بين الذاتي والموضوعي، ففي مثل هذه العلاقة يصبح النضال من أجل الحرية ممكنًا وبغيره لا يمكن حل التناقض القائم في علاقة المستغِلين والمستغَلين[١٠٩].

---

(107) Ibid.

(108) Virno, Paolo: **A Grammar of the Multitude**, P. 69.

(١٠٩) فريري، باولو: **تعليم المقهورين**، ترجمة: يوسف نور عوض، بيروت: دار القلم، ١٩٨٠، ص ص. ٣٣-٣٤، ١٠٥-١٠٧.

(ISSN: 2536 - 9555)

ومن ناحية أخرى فإن العصيان المدني يبدو وثيق الصلة بالفعل السياسي المبني على العقل العام. و«للعقل العام» وظائف رئيسية في التحول إلى المجتمع الأمثل، فهو بمثابة قوة تؤسس لإمكانية وجود مجال عام جديد غير حكومي، أو ما يدعوه فيرنو «جمهورية الجمهور» (Republic of the Multitude) وهو مجال من الشؤون المشتركة لم يَعُدْ تديره الدولة[١١٠].

وفي هذا الصدّد نجد فيرنو يساير «أنطونيو نيجري» الذي ذهب إلى **جميع عناصر الفساد والاستغلال يجري فرضها، في ظل شبكات العمل والإنتاج الرأسمالي اليوم، عبر نُظُم الإنتاج اللغوية والتواصيلة:** وبالتالي فإن تدميرها بالكلمات، لا يقل إلحاحًا عن تدميرها بالأفعال الملموسة. لكن ينبغي أن تعبئة وتوجيه الإحساس والمعنى بصورة مختلفة، أو تنظيمهما في أجهزة وأدوات تواصيلة بديلة متماسكة. فإذا كان التواصل قد تأثر، بصورة متزايدة، بشبكة الإنتاج، وإذا كان التعاون اللغوي قد أصبح أيضًا، وبصورة متزايدة، بنية الحالة الجسدية الإنتاجية، فإن التحكم بالحس والمعنى اللغويين، وشبكات التواصل يصبح قضية رئيسية، بصورة متزايدة، بالنسبة إلى النضال السياسي. وعلى الرغم من أن هابرماس قد تفّهم هذه الحقيقة، فإنه لا يعزو الوظائف المحررة للغة والتواصل إلا لشرائح منفردة ومعزولة من المجتمع. وهنا تصبح المشكلة كيف نستطيع أن نهتدي (ونوجه كذلك) إلى خطوط أداء المجتمعات اللغوية والشبكات التواصيلة التي تخلق نسيج الحياة والإنتاج؟ إن الحل لهذا يكمن في أنه لا بد للمعرفة في ظل الرأسمالية المتأخرة من أن تصبح فعلًا لغويًا، كما لا بد للفلسفة ذاتها من أن تصبح عملية **استعادة** حقيقية **للمعرفة.** وبعبارة أخرى، يتعيَّن على المعرفة والاتصالات أن تؤسّس لما يسميه نيجري (أنماط الحياة عبر نضال الجمهور)[١١١].

---

(110) Virno, Paolo: **A Grammar of the Multitude**, P. 69.

(١١١) هاردت، مايكل، وأنطونيو نيغري: **إمبراطورية العولمة الجديدة**، ص ص. ٥٧٣-٥٧٤.

ومن ناحية أخرى قد يبدو فيرنو متفقًا مع تشومسكي في تناوله لمسألة علاقة اللغة بالسياسة، حيث اعتمد تشومسكي على نظريته حول الطبيعة الإنسانية، وهي نظرية تشكل الحرية جوهرها، لينطلق إلى أن هناك مبادئ فطرية كامنة مسؤولة عن النشاط الاجتماعي والسياسي، وهو ما يدفع الأفراد إلى مناهضة كل أشكال السلطة القمعية التي تقمع حرياتهم وتمارس رقابة على أفعالهم(١١٢). لكن من الملاحظ أن تشومسكي يؤسس لفكرة أن اللغة **مستقلة**، وبالتالي جاءت نظرته للفرد بوصفه كائنًا «**مستقلًا**» ودوه مهم في تغيير العالم. وفي المقابل، فإن فيرنو يعيد المواجهة التي كانت دائرة بين تشومسكي وفوكو حول العلاقة بين «الثوابت البيولوجية» و«المحددات التاريخية» بالنسبة لمفهوم الذاتية(١١٣).

ووفقًا لفيرنو، إذا كان تشومسكي يؤسس لفكرة النضال السياسي على أساس الاعتقاد بأن الإنسان يتم تعريفه بمصطلحات عابرة للتاريخ من خلال جوهر معرفي معين مؤسّس على اللغة، فإن فوكو لا يعتقد أنه يمكننا أن نحدد أي تعريف بيولوجي، أو طبيعي للإنسان، لأن الخطابات اللغوية التي يتم بناءها من أجل القيام بذلك هي جزء لا يتجزأ من نظام محدد تاريخيًا لعلاقات القوة. وبعبارة أخرى، لا يمكن للسياسة في نظر فوكو أن تستند إلى تعريف طبيعي للإنسان، وإنما فقط على تحديد صراعات السلطة التي يواجهها الأفراد في ظل وجودهم التاريخي والاجتماعي. وعلى الرغم من أن فوكو لا يبني حججه على علم اللغة أو تفسير فلسفي معين للنشاط اللغوي، بل على تحليلات أركيولوجية للممارسات الخطابية، فإنه من الثابت أن لديه منظورًا موجهًا نحو دراسة اللغة وأفعال الكلام(١١٤).

---

(١١٢) كافي، فريدة: «**اللغة والسياسة في فكر نعوم تشومسكي**»، حوليات جامعة قالمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد ٢٠، ٢٠١٧، ص ص. ٦٤١-٦٦١.

(١١٣) للإطلاع على نص الحوار بين تشومسكي وفوكو، انظر:
https://chomsky.info/1971xxxx/

(114) Virno, Paolo: **When the Word Becomes Flesh**, PP. 175-181.

(ISSN: 2536 - 9555)

ويمضي فيرنو حيث ينتقد تشومسكي الذي مال إلى تحديد موقع الفرد ومكانته في الواقع ودوره السياسي بالنظر إلى الطبيعة «الاتصالية الذاتية» Intrapersonal للغة (أي بالنظر إلى كون اللغة حوارًا بين الفرد ونفسه، وليس من خلال كونها علاقة ذاتية بين طرفين أو شخصين Interpersonal). كذلك فهو ينتقد فوكو الذي بدا في نظره غير قادر على إدراك أن هناك بالفعل بعض الثوابت البيولوجية التي تحددّ ماهية «الطبيعة البشرية»، ومال إلى التأكيد على أن الظهور المتكرر «للثابت» في ظروف تاريخية مختلفة لا يكشف في الواقع سوى عن تنوعاته، وبالتالي يصبح نفيًا لفكرة الثابت نفسه. ويضيف فيرنو بأنه إذا كان من الصحيح أنه لا يمكن فصل الثوابت البيولوجية عن المحددات التاريخية التي تحوط بها، فإن هذا لا يكفي لإلغاء فكرة الثابت نفسه، أو إهمال أنماطه المختلفة التي يظهر من خلالها في ظل الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية[١١٥].

كذلك يرى فيرنو أنه يجب إعطاء الحركة الدينامية المتدفقة لملكة اللغة معنى سياسيًا، لأنها مشتقة من القوة اللانهائية للذات اللغوية التي تميز الكائن البشري. وسيظل «الإنسان العاقل» (Homo Sapiens) دائمًا ذا طبيعة جماعية سياسية، يتفاعل وينشأ في وسطه المتحدثون المختلفون بفضل عمليات التفرد التي يمكن تحليلها من منظور بيولوجي غير تاريخي. وهنا يمكن النظر إلى عملية إنشاء أفعال الكلام سواء على المستوى الفردي أو الجماعي على أنها تتوافق مع «ما وراء التاريخ» Metahistory للثابت الإنساني الطبيعي[١١٦].

ومن هنا يبدو فيرنو على أنه يقف موقفًا وسطًا بين تشومسكي وفوكو، حيث يؤكد الأول أن هناك بنية مطلقة لما أسماه اللغة الكلية Universal Language، أما فوكو فيؤسس لنظرية ذات صبغة تاريخية. ويبرر فيرنو هذا الموقف المختلط الذي يتبناه على أساس من مفهوم «جيلبرت سيموندون»

---

(115) Ibid, P. 182.

(116) Mecchia, Giuseppina: "**Paolo Virno: From the Language of Labor to the Labor of Language**", P. 499.

(Gilbert Simondon) (١٩٢٤-١٩٨٩) للجماعة وهو مفهوم لا يتعارض مع الفرد، بل على العكس من هذا، إنها المجال الأساسي للتفرد الأصيل (Radical Individualization): فالجماعة تهذب تفردنا. وعلى الرغم من أن التفردات تظل غير واعية على نحو واسع في أي شكل بيولوجي للحياة، فإنها تظهر من الناحية الفينومينولوجية في حياة البشر. وكما يشير فيرنو، «**إن واقع ما قبل الفرد الموجود في الموضوع [...] يتم عرضه خارجيًا كمجموعة معقدة من العلامات القابلة للاستخدام من الناحية الكلية، والأجهزة الذكية، والمخططات المنطقية المبتكرة**». وبالتالي فإن اللغة، إلى حد ما، هي واحدة من «الأشياء التكنولوجية» التي توضح الطبيعة العابرة للفرد Trans-individual والخاصة بالأنواع المختلفة للخبرة الإنسانية(١١٧).

وهكذا يقبل فيرنو نظرية سيموندون حول التفرد، التي تجد في الطبيعة السابقة على ظهور الفردية Pre-individual للخبرة الإنسانية، لأساس المتين لاعتمادها على الحقائق العابرة للفرد. وفي رأي فيرنو أن الصعوبات التي تواجه الأفراد والتي تتسبب فيها التكنولوجيا ليست هي المسألة المهمة في تمييز الطبيعة المتفردة للجمهور وتحديد الروابط الفردية للخبرة الإنسانية، وإنما يجب أن نتعامل مع مسألة التفرد Uniqueness في علاقتها بالأصالة Authenticity(١١٨).

ثالثاً: قوة الاعتراض أو النفي بوصفه عُملَة اللغة.

إذا كان فيرنو قد انتقد وضعية الجمهور، فإن هذا يرجع إلى أنها جعلته أقرب ما يكون إلى (المتفرجين السلبيين) الذين يمكنهم أن يصفقوا على الأداء الذي يشاهدونه أو يستهجنونه دون أي فعل من جانبهم، وإلى الحد الذي لم يَعُدْ الجمهور- بكل ما يمتلكه من قدرات وكفاءات- قادرًا على الخروج من النطاق

(117) Penzin, Alexei: "**The Soviets of the Multitude**", P. 82, Virno, Paolo: "**Reading Gilbert Simondon (Transindividuality, Technical Activity and Reification)**", *Radical Philosophy*, No. 136, (Mar/Apr 2006, PP. 35-42.

(118) Virno, Paolo: **Convention and Materialism**, P. 8.

(ISSN: 2536 - 9555)

النفسي الداخلي Interpsychic للجماعة إلى خلق واقع نفسي أصيل ومميّز بين الذوات الفردية Intrapsychic، خاصة مع السباق الرأسمالي الذي يتحول فيه كل فرد إلى أن يكون، في الوقت نفسه، فنان أدائي يؤدي فعل ما، والجمهور نفسه هو الذي يتلقى هذا الفعل: فهو يؤدي بشكل فردي بينما يساعد الآخر في الأداء(١١٩).

ويمضي فيرنو حيث يذهب إلى أنه في ظل العمل في الرأسمالية المتأخرة، وعندما تشكّل اللغة المنطوقة أداة الإنتاج الرئيسية، يتكون «الجمهور» من موهوبين آخرين يتوجهون بدورهم إلى المسرح. وفي النهاية، فإن ما ينفذه المنتِج الفرد هو «النتيجة»، سواء كانت جماعية أو فردية. وفي الواقع، فإن هذه «النتيجة» تنطلق من التعاون الاجتماعي، ومن مجموعة العلاقات التي تحدّد هويتنا، ومن ملكة اللغة، وما إلى ذلك(١٢٠). وهذا يعني أنه في ظل الرأسمالية اليوم، لا ينمحي التعاون الاجتماعي، بل بالعكس نلاحظ غزارة التعاون الاجتماعي لكن من حيث غايته الاقتصادية والإنتاجية فقط.

لكن تظل للجمهور قوة أساسية للاعتراض من خلال «النفي» Negation، ويوضح فيرنو ما يعنيه بهذا بأن النفي هو الأثر الحاسم للحضارة عن طريق كلمة «اللا» التي يمكن أن تلخص كل الرؤى الفلسفية حول اللغة، وتصف الطريقة التي يوجد بها الإنسان العاقل، إضافة إلى كونها مفتاحًا لفك رموز المشاعر والسلوكيات التي تجعلنا نتحدث– حسب ميولنا– عن سخط الحضارة أو عن واقع الثورة. ومن هذا المنظور، فإن كلمة «اللا» تحوي الكثير من الأبعاد والمضامين الفلسفية والأخلاقية والسياسية المتعلقة باللغة كملكة مشتركة بين البشر(١٢١).

ومن هذا المنطلق يذهب فيرنو إلى أن النفي «عُملَة اللغة» (Money of Language)، بل والقيمة العليا للغة، وهو يظهر على شكل قول «اللا» التي

---

(119) Penzin, Alexei: "**The Soviets of the Multitude**", P. 83.
(120) Ibid.
(121) Virno, Paolo: **An Essay on Negation: For a Linguistic Anthropology**, tr. Lorenzo Chiesa, Calcutta, India: Seagull Books, 2018 (2013), PP. 2-3.

ربما يمكن مقارنتها بأهمية المال– أي الطريقة الكلية للتبادل. ويوضح فيرنو ما يعنيه بهذا بأن العلامات لها قيمة، تمامًا مثل السلع التي يتم شراؤها أو بيعها. لكن في حين أن القيمة الاقتصادية للكرسي أو الكمبيوتر أو قطعة الملابس تجد تعبيرًا مشتركًا في المال، فإن القيم اللغوية تبدو بدلاً من هذا خالية من التمثيل على مستوى واحد Unitary Representation. وهذا يعني أن للمال جانبًا مزدوجًا. فمن ناحية، فهو سلعة مثل كل السلع الأخرى، وهي النتيجة المقيدة لعملية عمل محددة؛ ومن ناحية أخرى، فإنه يعكس سمة أساسية للسلع، وهي أن لها قيمة تبادلية. وبالنسبة لمثل هذه القيمة، فإن المال هو الرمز ووحدة القياس معًا. وإن قابلية التناسب بين منتجات العمل المختلفة تأتي معًا في هذا المنتج المحدد. وكما هو الحال بالنسبة للمال، فإن للنفي في اللغة جانبًا مزدوجًا. فـ«اللا» هي علامة من بين علامات أخرى تتمثل وظيفتها في إكساب الجمهور خاصية مشتركة بين جميع العلامات. ولهذا فإن «اللا» تعبر بشكل جوهري عن سلبية العلاقات التي تحدد، بشكل عام، كل عنصر من عناصر اللغة. وبالتالي فإذا كان المال هو السلعة التي تمثل قيمة كل السلع الاقتصادية؛ فإن «اللا» هي العلامة التي تمثل قيمة كل العلامات اللغوية. وفي كلتا الحالتين، يكشف كل من المال والنفي عن الطبيعة الخفية للنظام الذي يكونان مجرد مكونات له[١٢٢].

وفي ضوء هذا يناقش فيرنو إشكاليتين فلسفيتين تتعلقان باللغة: الأولى تدور حول علاقة اللاوجود باللغة؛ والثانية تتعلق بالدور اللغوي الماورائي Meta-linguistic المحتمل للنفي. وبالنسبة للإشكالية الأولى، يرى فيرنو أنه إما أن يكون للاوجود واقع خاص بشكل مستقل عن اللغة، ثُم يتجلى داخل اللغة بفضل النفي؛ أو على العكس من هذا، فإن اللاوجود لا يظهر في خبرة الجمهور إلا لأنه يُقال بـ«لا»، وبالتالي كتأثير أو انعطاف لعملية لغوية معينة. وكلا الرأيان له أنصاره. وعلى سبيل المثال، يعتقد «هيدجر» أن كلمة الـ«لا» تقتصر على تقرير

(122) Ibid, PP. 45-46.

(ISSN: 2536 - 9555)

وإثبات العدم، الذي يسبق كل نطق، وهو ما نستشعره في الشعور بالقلق. ومن هنا سيكون النفي انعكاسًا يرشدنا إلى عدم الوجود، ومع هذا فهو انعكاس؛ أي شهادة غير مباشرة لمزاج عاطفي لا يعتمد بأي شكل من الأشكال على كلماتنا. وفي المقابل يعتقد «كانط» أن عالم الظواهر لا يتمتع بتماسك إيجابي خاص به، مثل النفور والاستياء والخطأ، وبالتالي فمن الخطأ افتراض عدم وجود منفصل عن اللغة. ويتحفظ فيرنو على وجهة نظر كانط، حيث يذهب إلى أنه من الخطأ الاعتقاد بأن اللاوجود يُدخل إلى العالم بكلمة «اللا»؛ وعلى وجه التحديد، بقدر ما يكون النفي عُملَة اللغة، فإنه لا يتجلى إلا بطريقة مكثفة في جانب موجود بالفعل في جميع العلامات اللفظية. وبعبارة أخرى، فإن اللاوجود ليس مستقلًا عن قدرتنا على النطق، ولا ناتجًا عن نوع معين من المعطيات، بل بالأحرى يتزامن مع الطبيعة المتسامية للغة ذاتها. وهذا يعني أن اللاوجود متجذر في الحقيقة التي نتحدث عنها، وليس في ما نقوله في لحظة ما. وكما يمثل المال قيمة السلع، فإن كلمة «اللا» تعبّر عن لاوجود في اللغة: إنها تعبّر عنه ولكنها لا تؤسسه. وبمعنى ما، كان هيدجر على حق عندما رأى أن النفي يشهد على «الكشف المستمر والواسع النطاق، وإن كان مشوهًا، عن العدم في وجودنا». ومع هذا، فإن هذا العدم لا يسكن في الشعور بالقلق، بل في خبرة اللغة ذاتها[١٢٣].

وفي ما يتعلق بالإشكالية الثانية التي تتصل بالدور اللغوي الماورائي المحتمل للنفي، أو العلاقة المتشعبة بين الإثبات والنفي، نجد أنه بالنسبة للبعض مثل «جون لـ. أوستن» (John Langshaw Austin) (١٩١١–١٩٦٠)، فإن كلمة «اللا» تُعَدُّ جزءًا لا يتجزأ من لغة الموضوع، لأنها تلعب دورًا مهمًا في التأكيدات التي تصف الحوادث. وبالنسبة لآخرين مثل «برتراند راسل» (Bertrand Russell) (١٨٧٢–١٩٧٠)، تؤدي كلمة «اللا» وظيفة لغوية وصفية، لأنها تشير (ضمنيًا على الأقل) إلى عبارة سابقة. وبمعنى آخر، فإن كلمة «اللا» تكون

(123) Ibid, PP. 46-48.

ذات دلالة فقط عندما تكون مرتبطة بجملة، وبالتالي فهي تفترض اللغة مسبقًا. ومثال على ذلك: إذا كانت (س) جملة تنتمي إلى لغة أساسية Primary Language، فإن (لا س) هي جملة تنتمي إلى لغة ثانوية Secondary Language. وبالنسبة إلى رأي فيرنو فإنه يرفض كلا الموقفين، ويذهب إلى أن النفي غير متماثل في ما يتعلق بالإثبات، لأنه يتناول علاقة القضايا بالحقائق، دون تعزيز أو تعديل إطلاقًا لتمثيل الحقائق قيد النظر. لكن الحكم على الوجود غير متماثل أيضًا في ما يتعلق بالمسندات الوصفية، ناهيك عن أن الجمل الشرطية مثل «هذا أمر ممكن» و«هذه مسألة ضرورية»- تمامًا مثل مهمة النفي- تُعَدُّ بصفة حصرية بمثابة تحديد للعلاقة بين الجمل التي تظهر فيها الخبرات داخل العالم(١٢٤).

وخلاصة القول، إن فيرنو أن اللغة وحدها هي الوسيلة التي يمكن من خلالها تجاوز الفجوة المحتملة بين التمثلات الوهمية والواقع، عندما نتعلم التحدث، وعلى وجه الخصوص، أن نقول كيف أن الأمور ليست كذلك، لأنه من المؤكد أننا لا نتوقف أبدًا عن إنتاج تمثيلات نفسية لا يمكن تمييزها عن الحقائق التي تطرحها. وهذا يعني، وفقًا له، أن النفي هو ما يفصل بين الفكر اللفظي وبين التمثلات النفسية والعمليات المعرفية للمشاعر والصور الذهنية(١٢٥). ومن هذا المنظور يحاول فيرنو استعادة قوة الاعتراض لدى الجمهور عن طريقة استعادة القدرات الخلاقة التي تجسدها اللغة كفعل، وبحيث يمكن تجاوز الأشكال المختلفة للتعاون الاجتماعي السائدة، أو على الأقل توسيعها بحيث لا تتقيد بشبكة العلاقات المحكومة بالقيود الاجتماعية المفروضة على الجمهور. ومن هذه الزاوية يتضح ربط فيرنو بين اللغة وفعل التحرر بروابط وثيقة، من خلال التعويل على الفعل السياسي كقوة عفوية لدى الجمهور للخروج من وضعيته الراهنة، وبحيث يتم في النهاية محو التناقضات القائمة في شبكة الإنتاج الرأسمالي.

---

(124) Ibid, PP. 48-49.
(125) Ibid, P. P. 58, 59.

(ISSN: 2536 - 9555)

المحور الخامس
الآفاق المستقبلية ومعالم الطريق نحو الفعل السياسي

لقد اتضح لنا أن مدى تعويل فيرنو على بناء دولة منظمة تضم مجتمعًا تعدديًا يكون قادرًا على إيواء الجسد الاجتماعي. لكن هل يمكن أن يتحقق هذا في ظل سطوة الرأسمالية في الوقت الراهن؟ وما الذي يعنيه بالثورة المضادة؟ وماذا عن مستقبل الاشتراكية؟

أولًا: أزمة الإنسان والمجتمع في ظل الرأسمالية.

نظرًا لحدوث تغييرات عميقة على مستوى تنظيم الإنتاج ودور العمل في الرأسمالية اليوم، فإن هذا أثر بدوره على العلاقات الاجتماعية ككل. فلم يَعُدْ العمل منظمًا بطريقة أداتية فحسب، خلف أبواب المصانع، بل أصبح جزءًا من إنتاج الحياة الاجتماعية، كما أصبح العمل الإبداعي واللغوي والفكري عنصرًا أساسيًا في الإنتاج. ومن هنا تطلبت بنى الإنتاج الرأسمالية أفرادًا مبدعين إضافة إلى قدرتهم الأصلية على الإنتاج على جميع المستويات، وصار العمل الإبداعي ذاته يصاحبه حركية وديناميةٍ مستمرة ينبئ بالمزيد من القيمة الاقتصادية.

وفي ضوء هذه المتغيرات، واجهت الفلسفة السياسية الليبرالية مشكلات جديدة تعين عليها العمل على حلها، ومن بينها كيف يمكن لها أن تفسر مسار الأخلاق السياسية للأشكال الجديدة من التغيير اللغوي؟[١٢٦]. ومن هنا تزايد الاهتمام باللغة

---

(126) Blake, Michael: "**Language Death and Liberal Politics**", in: *Language Rights and Political Theory*, eds.: Will Kymlicka and Alan Patten, Oxford and New York: Oxford Univ. Press, 2003, P. 210.

ومن الجدير بالذكر أن العديد من المفكرين في الآونة الأخيرة أهتموا بدراسة الدور الذي تقوم به اللغة في إنشاء علاقات السلطة والحفاظ عليها وتغييرها من جانب، وزيادة الوعي بالأسلوب الذي تسهم به اللغة في تمكين سيطرة البعض من جانب آخر، خاصة وأن تصحيح الوعي يمثل الخطوة الأولى للتحرر. (فيركلف، نورمان: **اللغة والسلطة**، ترجمة: محمد عناني، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦، ص. ١٥).

وعلاقتها بالسلطة بسبب تغيّر خصائص الإنتاج في الرأسمالية المتأخرة، وقد حدث هذا التحول في بداية السبعينيات ولا يزال مستمرًا، وهو التحول الذي يميّز المجتمعات الغربية اليوم، خاصة على مستوى أنماط العمل. وهنا ينبع السؤال: ما السبيل إلى استعادة الروابط القوية بين اللغة والسياسة في عصرنا هذا الذي يشهد ثورة كبيرة في المجال الرقمي؟

يجيب فيرنو عن هذا السؤال من خلال تعويله على دور المثقف رغم ما يشوب هذا الدور من صعوبات، وعلى حد قوله: «لا شك أن المثقفين الجماهيريين يجدون صعوبة في الوقت الراهن في تحويل قوتهم الإنتاجية إلى قوة سياسية. لكن يجب ألا نساير النظرة التي تقول بأن أشكال النضال (مثل الإضراب والعصيان وما إلى ذلك) قد تم السيطرة عليها وتحديدها في أُطر سياسية محكمة. وعلى العكس من هذا، فإن مناقشة أشكال النضال هي المعيار الحقيقي الأكثر أهمية لأي نظرية سياسية خلاقة. ومن ناحية أخرى، فإن روح المبادرة Entrepreneurialism، والمعرفة المشتركة، والقدرة على التواصل والتفاعل: هذه (المواهب) التي يتمتع بها الجمهور في وقتنا الراهن يجب أن تصبح أدوات ضغط قوية. وباختصار، فإن المطالبات الأساسية– (ما نريده)– تعتمد بصفة كلية على (كيف يمكننا التصرف) لتغيير علاقات القوة والإكراه داخل التنظيمات الاجتماعية الراهنة. وكل شيء يعتمد على الأبداع ذي الأفق الواسع (للاعتصامات) الجديدة و(الاحتجاجات) الجديدة»[١٢٧].

وفي ضوء هذا تبدو أزمة الإنسان المعاصر بظلالها القاتمة، وقد كان فيرنو مدركًا لهذه الأزمة الشاملة، ولم يثنهِ هذا عن التعويل على النضال السياسي. ومع اعتراف فيرنو بأن «رأسمالية ما بعد الحداثة تعمل– في ظل صناعة الثقافة المعاصرة– على توفير استقلالية نسبية للإبداع»[١٢٨]، فإنه مع تشويه التواصل نفسه، وإفساد أنماط الوجود، تختفي شيئًا فشيئًا الحرية والاستقلال أو شبه

(127) Joseph, Branden W.: "**Interview with Paolo Virno**", P. 32.
(128) Penzin, Alexei: "**The Soviets of the Multitude**", P. 88.

(ISSN: 2536 - 9555)

الاستقلال الذاتي للأفراد وكذلك الأمر بالنسبة لعوالم الثقافة، مثل الفن. ويضحى الفرد (باستقلاليته) هو نقطة وصول مليئة بالتناقضات، وليس نقطة انطلاق أساسية: فهو نقطة وصول عملية معقدة من التفرد، وبخاصة تفرد القوى الإنتاجية العالمية، والبنى غير المقيدة، وأنماط الوجود السابقة على ظهور الفردية. ومع هذا تظل استقلالية الفرد، في نظر فيرنو، إمكانية أساسية نتيجة للصراع السياسي، ورهانات الصراع الطبقي. أما بالنسبة للثقافات والفنون فهي جزء لا يتجزأ من الممارسة الإنسانية. إنها بمثابة المجال الذي ينعكس فيه التطبيق العملي على نفسه ويؤدي إلى تمثيل الذات. وإذا كانت الممارسة البشرية ككل تدخل اليوم في العملية الإنتاجية، فلهذا السبب، فإن الإنتاج في عالمنا المعاصر له، في بعض الأحيان، جوانب ثقافية جمالية. ولهذا فإن التساؤل عن المصير المحتمل للفن والثقافة بشكل عام يعني التساؤل عن الشكل الذي يمكن أن يتخذه الجمهور بعد عصر العمل المأجور (المعتمد على صاحب العمل). وإذا كانت الثقافة والفن والجماليات قد أصبحت من بين الموارد الإنتاجية، فإنها، تمامًا مثل «العقل العام»، يمكنها تحويل نفسها إلى موارد سياسية للجمهور»[١٢٩].

من هنا فإن السبب في هذه الأزمة هو أن الإنتاج الرأسمالي يمتد خارج مكان العمل، إلى ما هو غير اقتصادي، ويشمل كل شيء بما في هذا كل أشكال العلاقات الاجتماعية. ولهذا يذهب فيرنو إلى أن كلًا من الجماعية والذاتية قطبان من «صناعة الثقافة» المعاصرة. و«صناعة الثقافة» (Culture Industry) هي نموذج لشبكة الإنتاج بأكملها في الاقتصاديات الرأسمالية، حيث يكون كل عمل المنتِج مستندًا إلى الطابع «الأدائي» الخالص، ونكون بإزاء قوالب موحدة للذات تغيب فيها ذاتية الفن والثقافة ويغيب عندها الإبداع»[١٣٠].

والواقع أن فيرنو محق تمامًا في نقده لسطوة الرأسمالية اليوم بطابعها الطابع الاستغلالي الوحشي لجميع القدرات وهو ما يجعله قريبًا إلى حد ما من «ثيودور

(129) Joseph, Branden W.: "**Interview with Paolo Virno**", P. 33.
(130) Penzin, Alexei: "**The Soviets of the Multitude**", P. 81.

أدورنو» (Theodor W. Adorno) (١٩٠٣-١٩٦٩) خاصة في ما وصفه الأخير بـ«العقل الأداتي» (Instrumental Reason)، الذي يعمل على تجاهل استقلالية الثقافة والفنون؛ برغم أن هذه الاستقلالية تمثل ضمانًا أساسيًا ضد الوقوع في براثن العدمية(١٣١). وكذلك يبدو فيرنو مسايرًا لما يقوله جورج أورويل (George Orwell) (١٩٠٣-١٩٥٠) عن طرق إنتاج لغة السلطة، وطرق مقاومتها في الوقت ذاته، من خلال ما أسماه باللغة الجديدة، وهي لغة سياسية مصممة لتعزيز الأهداف الاجتماعية والسياسية للنظام الشمولي. ومن أهم السمات اللغوية المختلفة لهذه اللغة الجديدة هي معاني كلماتها، حيث تم بناء مفرداتها بحيث تعطي تعبيرًا دقيقًا ومحددًا للغاية في كثير من الأحيان عن كل معنى يمكن أن يرغب عضو الحزب في التعبير عنه بشكل صحيح، مع استبعاد جميع المعاني الأخرى. كما تستهدف اللغة الجديدة أن تقوم المجموعة السياسية (النخبة) بتحقيق أهدافها من خلال جعل اللغة تحتوي على كلمات ذات معاني معينة، وتفتقر إلى كلمات ذات معاني أخرى. وبعبارة أخرى فإن هدفها إخفاء الحقائق بدلًا من الإفصاح عنها، وبحيث يتم تحريف الكيفية التي يقوم بها السياسيون بتزييف الواقع أو التحكم في طريقة إدراك الأفراد له(١٣٢).

ثانياً: وجوب تقويض البنى الرأسمالية.

إذا كان فيرنو يرى أن ثمة إمكانية ما للخروج من هذه الوضعية الشاملة لأزمة الإنسان والمجتمع، فإنه يذهب في المقابل إلى ضرورة التركيز على نقد الرأسمالية على مستوى البنية وذلك كسبيل أساسي لاستعادة الطبيعة الحقيقية للفعل

---

(131) Adorno, Theodor: **The Culture Industry: Selected Essays on Mass Culture**, London & New York: Routledge, 1991, PP. 1-2.

(132) Ball, Derek: "**An Invitation to Social and Political Metasemantics**", in: *The Routledge Handbook of Social and Political Philosophy of Language*, ed.: Justin Khoo and Rachel Sterken,New York and London: Routledge, 2021, P. 42.

وانظر أيضًا: عبد اللطيف، عماد: "**اللغة والثورة: نقد الخطاب السياسي في أعمال جورج أورويل**»، مجلة نزوى، العدد ٦٩، يناير ٢٠١٢، ص ص. ٤٥-٥٢.

(ISSN: 2536 - 9555)

السياسي، وعلى حدّ تعبيره: «في أيامنا هذه، يمكن للنضال الذي يهدف إلى تقويض علاقات الإنتاج الرأسمالية أن يُظهر نفسه من خلال تأسيس مجال عام غير حكومي، لمجتمع سياسي موجه نحو (العقل العام). ومن أجل قيام هذا النضال، فإن السمات المميّزة للإنتاج في عصر ما بعد الحداثة (تثمين ملكة اللغة الخاصة به، والعلاقة الأساسية مع وجود الآخر، وما إلى ذلك) يجب أن تخضع إلى شكل جديد جذريًا من الديمقراطية»[١٣٣].

ومن ناحية أخرى، ومع إقرار فيرنو بأن حركات العمال العالمية لم تتمكن، رغم كل نضالاتها، من إحداث تأثير مهم في البنى الرأسمالية القائمة، فإنه لا يساير الرأي القائل بعدم جدوى نقد الرأسمالية من منظور أخلاقي كسبيل لاستعادة المجال التواصلي الرمزي («المجال العام»). وفي رأيه إن المأزق الذي يخيم على حركات العمال العالمية «يأتي من كونها حركات متأثرة بتشويهات أنماط الإنتاج. وليس من غربتها أو تهميشها كما يظن البعض، الأمر الذي يؤكد أن احتماءها بالأخلاق فقط سيكون ملاذًا عبثيًا، خاصة وأن الإنتاج الرأسمالي المعاصر يحشد لصالحه جميع المواقف التي تميّز الجمهور، ويضع حياة العمل كغاية»، بل والأكثر من هذا أنه «يستولي على (الحياة) ذاتها– أي مجمل القدرات الإنسانية». ومن هنا يبدو من الأهمية بمكان «أن يكون النضال ضد الرأسمالية مرتكزًا على الحقيقة الأساسية للواقع نفسه»[١٣٤].

ويمضي فيرنو حيث يذهب إلى أن المفاهيم والخطابات «المجردة» مثل «الذاتية»، و«اللغة»، و«الجسد»، و«الانفعالات»، أو بعبارة أخرى، الحياة في جميع جوانبها، يتحكم فيها نظام الإنتاج الرأسمالي، وقد أصبحت أساسية بالنسبة لها، بوصفها مجردات حقيقية وفاعلة[١٣٥].

(133) Penzin, Alexei: "**The Soviets of the Multitude**", P. 87.
(134) Joseph, Branden W.: "**Interview with Paolo Virno**", P. 35.
(135) Penzin, Alexei: "**The Soviets of the Multitude**", P. 81.

من هنا لا يرفض فيرنو النقد الأخلاقي للرأسمالية ولا يراه بصفة حصرية محاولة عبثية؛ إذ يظل هذا الشكل من النقد جانبًا مهمًا وإن كان غير كافٍ بمفرده، وفيرنو بهذا يخالف بعض الفلاسفة الماركسيين، من أمثال «فريدريك جيمسون» (Fredric Jameson) (١٩٣٤-...؟) الذي ذهب إلى عدم جدوى نقد الرأسمالية بمعايير أخلاقية، لأن النقاد الثقافيين والمشتغلين بالأخلاق أنفسهم أصبحوا منغمسين في الفضاءات ما بعد الحداثية، ويتحركون في قالبها ومقولاتها الثقافية؛ لدرجة لا يستطيعون معها ممارسة النقد الأيديولوجي من الطراز القديم والثورة الأخلاقية على الرأسمالية[١٣٦].

وهذا يعني أن نقد الرأسمالية يجب أن يسير النضال في مستويين: **البنيوي، والأخلاقي**، ويؤكد فيرنو على هذا، حيث يذهب إلى أنه «إذا كانت الحياة المنخرطة في الإنتاج الرأسمالي تتعارض مع نموذج (الحياة الطيبة)، وإذا كان البحث عن الحياة الطيبة هو بالفعل موضوع الأخلاق، فهنا تكمن الصعوبة والتحدي المهم. لكن إعطاء الأولوية للأخلاق، على اعتبار أن هذه الأولوية هي النتيجة المباشرة لعلاقات الإنتاج المادية، ليس صحيحًا. فللوهلة الأولى يبدو أن هذه الأولوية تتجاهل العيوب الرئيسية في نظام الإنتاج الرأسمالي، علاوة على أن النقد الأخلاقي للرأسمالية يواجه صعوبة في مواجهة الطريقة التي يتم بها تشكيل فائض القيمة، ويكتفي بالدفاع عن بعض المبادئ العامة المتعلقة بـ«الحالة الإنسانية»: مثل حرية القول، وتقاسم الخيرات العامة متمثلة في المعرفة، والسلام، وحماية البيئة الطبيعية، والعدالة والتضامن، والتطلع إلى مجال عام يمكن من خلاله تثمين تفرّد كل وجود وعدم تكراره مرة أخرى. وبالتالي يظل النقد الأخلاقي، رغم تجذره في العمل الاجتماعي، يحلق فوق الرأسمالية على ارتفاع كبير دون تغيير في علاقات القوة التي تعمل في داخلها»[١٣٧].

---

(136) Jameson, Fredric: **Postmodernism, or The Cultural Logic of Late Capitalism**, Durham, NC: Duke Univ. Press, 1991, P. 46.

(137) Joseph, Branden W.: "**Interview with Paolo Virno**", P. 35.

(ISSN: 2536 - 9555)

وخلاصة القول إن فيرنو لا يساير من يقول بعدم أهمية النقد الأخلاقي للرأسمالية؛ ولأسباب متماثلة، يخطئ أيضًا من يبتهج لهذا النقد الأخلاقي، ويعتقد أنه يمكنه التخلص من ظواهر مثل «الاستغلال» و«الصراع الطبقي». ففي كلتا الحالتين، نحن نتجاهل، كما يقول فيرنو، النقطة الحاسمة المتمثلة في: العلاقة الجدلية بين نموذج «الحياة الطيبة» و«حياة العمل»[١٣٨].

وإذا كانت إدانة الرأسمالية على المستوى الأخلاقي أمر مهم، وإن كان الأهم من هذا هو النقد البنيوي لها بوصفها نظامًا يقوم على مجموعة من البنى التي تؤسس للظلم الاجتماعي، فإن ثمة تساؤلًا يطرح نفسه ويتمثل في: هل كان فيرنو فوضويًا Anarchist– بلغة خصوم الماركسية– يتوجه بفكره نحو هدم السلطة المؤسّسية للدولة؟ ومن هذا التساؤل تنبع أسئلة أخرى مثل: كيف تغيُّر المستجداتُ الراهنة في الرأسمالية خصوصية العمل الجماعي؟ وهل يمكن الحديث عن البعد الجماعي كممارسة للتنظيم الذاتي والمساعدة المتبادلة دون أي إطار مؤسسي؟ وهل يمكننا القول إن هذه الطبيعة الجماعية تتشكل الآن في سياق الحياة خارج أماكن الإنتاج، في فضاء «التنشئة الاجتماعية خارج مكان العمل»؟

يجيب فيرنو عن هذه التساؤلات المتشابكة بأن كلمة «مؤسسة» Institution ليست مصطلحًا ينتمي بصفة حصرية إلى مفردات الخصوم من أنصار النظام الرأسمالي، بل إنه أيضًا (وربما بشكل أساسي) مفهوم حاسم في سياسة الجمهور. وتُعدُّ المؤسسات بمنزلة الطريقة التي يحمي الجمهور (جنسنا البشري) من خلالها نفسه، من عدم اليقين، ويضع قواعد لحماية ممارساته الخاصة. ولذلك فإن المؤسسة هي أيضًا بمنزلة اللغة الأم، وهي مكان الطقوس التي نستخدمها للشفاء وحل أزمة المجتمع. ومن هنا لا ينبغي أن نضع القوى المؤسسية في تضاد مع القوى المناهضة للمؤسسات؛ وبدلًا من هذا، ينبغي أن نركّز على تحديد المؤسسات التي تقع خارج نطاق «احتكار القرار السياسي» الذي تمثله الدولة،

(138) Ibid, PP. 35-36.

خاصة احتكارها للمؤسسات التي تتوافق مع «العقل العام» الذي أشار إليه ماركس، وهو «العقل الاجتماعي» الذي يشكّل في الوقت نفسه القوة الإنتاجية الرئيسية ومبدأ التنظيم للجمهور(١٣٩).

ويمضي فيرنو حيث يذهب إلى أن فكرة الدولة الحديثة ونظرًا للعيوب المتأصلة فيها، فإنها تواجه أزمات جذرية وبالتالي لا تتوقف عن إعادة إنتاج نفسها باستمرار من خلال مجموعة من التحولات المثيرة للقلق. وعلى سبيل المثال، إن «حالة الاستثناء الدائم» هي إحدى الطرق التي تتمكن بها سيادة الدولة الحديثة من البقاء على قيد الحياة، وتأجيل تراجعها إلى أجل غير مسمى. وينطبق الشيء نفسه على ما قاله ماركس عن الشركات المساهمة: فقد شكّلت هذه الشركات «تجاوزًا للملكية الخاصة لكنها تعمل في إطار بنية الملكية الخاصة نفسها». فإذا كانت الشركات المساهمة سمحت بالتغلب على الملكية الخاصة، فإنها في الوقت نفسه، عبّرت عن هذه الإمكانية بطريقة عزّزت وطوّرت على المستوى الكيفي الملكية الخاصة نفسها. ومن هنا فإن حالة الاستثناء الدائم، التي يتم اللجوء إليها باستمرار، تشير إلى التغلب على شكل الدولة على أساس «وضعيتها» نفسه. وهذا ما يدفع إلى إدامة للدولة، وسيادتها، ولكنه أيضًا برهان يكشف عن جوهر أزماتها(١٤٠).

ومن هنا يعتقد فيرنو أن «حالة الاستثناء» تسمح لنا بإعادة النظر في شكل المؤسسات، وطريقة عملها وقواعدها. وعلى سبيل المثال: في «حالة الاستثناء»، يكون الفرق بين «المسائل المتعلقة بمبادئ القانون» و«المسائل المتعلقة بحكم الواقع» مخففًا إلى درجة أنه يكاد يختفي. ومرة أخرى، تصبح القواعد معطيات تجريبية يمكنها أن تكتسب قوة معيارية. كما أن هذا التمييز النسبي بين معايير القانون وحقائق الواقع، والذي ينتج في أيامنا هذه قوانين خاصة وسجون قمعية مثل جوانتانامو، من الممكن أن يعاني من انحراف بديل، فيتحول إلى مبدأ «دستوري» في المجال العام. والنقطة الحاسمة هي أن القاعدة ينبغي أن تُظهر

(139) Penzin, Alexei: "**The Soviets of the Multitude**", P. 85.
(140) Ibid, PP. 85-86.

(ISSN: 2536 - 9555)

ليس فقط إمكانية العودة إلى ميدان الوقائع، بل أيضًا إلى أصلها المحسوس. وباختصار، ينبغي أن تُظهر قابليتها للإلغاء وقابلية الاستعاضة عنها؛ ويجب أن تقدم كل قاعدة نفسها كوحدة قياس للتطبيق العملي وكشيء يجب إعادة تقييمه باستمرار(١٤١). وفي المقابل فإن هذا التحول من حالة الطبيعة إلى الدولة المدنية المنظمة، لا يمكن أن يكتمل أبدًا، كما يقول فيرنو، فحتى السيادة القائمة على القوانين لا يزال يتعيَّن عليها إعلان «حالة الاستثناء» من أجل الحفاظ على حكمها؛ وحالة الاستثناء هذه هي في الواقع عودة إلى «حالة الطبيعة» التي لن يتم تجاوزها أبدًا. وبالتالي فإن حالة الاستثناء ونظرًا لأنها حالة لا تكون فيها القواعد ثابتة، فإنها عرضة للتغيير؛ ومن هنا نعود من القواعد الثابتة إلى الوضع الإنساني نفسه الذي أدى إلى ظهورها في المقام الأول(١٤٢).

ومن ناحية أخرى فعلى الرغم من أن حالة الاستثناء تُوصف بأنها الخطر الشمولي لموقفنا الحالي في المحافظة على الدولة الحديثة، فهي أيضًا حالة يستطيع فيها الجمهور تطوير ممارسات جديدة وأشكال جديدة من الاختراع(١٤٣). وهنا نتساءل: كيف يمكن للجمهور أن يخرج من وضعيته الراهنة؟

---

(141) Ibid,P. 86.

(142) Virno, Paolo: **Multitude between Innovation and Negation**, tr. Isabella Bertoletti, James Cascaito, and Andrea Casson, Los Angeles, CA: Semiotext(e); Cambridge, MIT Press, 2008 (2004), PP. 107-125, esp. 110-114. Also: Shaviro, Steven: "**Innovation and Negation**", *Criticism*, Vol. 50, No. 2 (Spring 2008), P. 320.

(143) Shaviro, Steven: "**Innovation and Negation**", P. 320.

المحور السادس
نقد وتقييم فلسفة فيرنو السياسية

يتضح لنا أن هدف فيرنو هو استعادة الطابع الحقيقي للفعل في جميع مجالات الخبرة الإنسانية، وبالتالي تنمحي التفرقة التقليدية بين «العمل المأجور» و«العمل غير المأجور»، ويكون العمل كله ذا طابع إنساني، بما في هذا العمل الفكري الذي تقوم به الطبقة البرجوازية عادة (مثل التدريس في الجامعة أو العمل في المسرح)، جزءًا لا يتجزأ من حياة الفعل.

والواقع أن فلسفة فيرنو السياسية ترتبط أوثق الارتباط بالمشروع التحرري الذي بدأته الماركسية في القرن العشرين. وهو ينتمي إلى مجموعة من المفكرين الراديكاليين اليساريين، حيث لا يزال إلى الأن متمسكًا بعقيدته الماركسية التي يعول عليها بوصفها الفلسفة الصحيحة لتفسير الصراع الطبقي، وبالتالي تظل الشيوعية في نظره تمثل نفيًا أو إلغاءً للعمل المأجور.

أولًا: **مستقبل الاشتراكية والثورة المضادة**.

بسقوط الاتحاد السوفيتي، بدأت تظهر في أفق عالم ما بعد الاشتراكية أشكال جديدة من العمل (وازدادت ظواهر مثل الفقر والهشاشة الشديدة في البنى والنسيج الاجتماعي وتفسخ الروابط الاجتماعية)، التي استبدلت بالنظام السوفييتي القديم وتحت شعارات الليبرالية الجديدة Neoliberalism ظواهر سلبية مضطربة ومدمرة، قدمت نفسها كمكونات ملحة أو ضرورية لـ«الانتقال إلى السوق الحرة والديمقراطية». ومن هنا وقع الجمهور في حالة من التفتيت والتجزئة في مجتمعات ما بعد الاشتراكية، وكذلك العنف المروع الذي أحدثه «التراكم الأولي لرأس المال الاقتصادي» في التسعينيات، والذي أعقبه «التراكم الأولي لرأس المال السياسي» بوصفه ولادة جديدة لشكل ممسوخ أو متحور من الدولة القمعية في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. وإذا كان للجمهور أن يقطع صلاته مع الماضي التاريخي لاشتراكية الدولة بتمجيدها المغالى فيه للجماعية الضخمة، فإن هذا لا

(ISSN: 2536 - 9555)

يجب أن يثني عزيمته عن المضي في الاعتقاد بأن اشتراكية الدولة يجب أن تصبح، على حدّ تعبير فيرنو، «شيوعية رأس المال» Communism of Capital[١٤٤].

ومن هنا تصبح إمكانية التحول للمجتمع الشيوعي الأمثل قائمة، بشرط أن يتم محو الملكية الخاصة لرأس المال، ويتم هذا عن طريق اللغة التي تمثل على وجه التحديد تلك القدرة التواصلية للجمهور والتي تجعل الفعل السياسي ممكنًا، وبالتحديد تلك القدرة على التضامن والعمل الجماعي التي تحمل إمكانية هدم الظروف التي يقوم عليها العمل المأجور.

وفي هذا الإطار، يناقش فيرنو إمكانية ظهور الثورة المضادة Counterrevolution، حيث يذهب إلى أن الثورة المضادة لا تعني فحسب خلق شيء جديد، ولكنها في حد ذاتها تتشكل بشكل قوي من خلال ملامح الحركة الثورية التي تعارضها، وعلى حد تعبيره: «الثورة المضادة لا تعني فقط القمع العنيف (على الرغم من أن هذا دائمًا جزء منها بالتأكيد)، كما أنها ليست مجرد استعادة للنظام القديم، أي إعادة تأسيس النظام الاجتماعي الذي مزقته الصراعات. وإنما الثورة المضادة هي حرفيًا ثورة في الاتجاه المعاكس. وبعبارة أخرى، فهي إعادة بناء بطريقة سلبية لأنماط الإنتاج، وأشكال الحياة، والعلاقات الاجتماعية التي، مع هذا، تعزز وتحرك القيادة الرأسمالية مرة أخرى. إن الثورة المضادة، مثلها مثل نقيضها الفعلي، لا تترك أي شيء دون تغيير. إنها تخلق حالة طوارئ طويلة، وتعمل على نحو فعال على إنشاء (نظامها الجديد) من خلال خلق عقليات وعادات ثقافية وأذواق وعادات جديدة. كما أنها تذهب إلى أصول الأشياء، وتعمل بشكل منظم. والأهم من هذا أنها تتمتع بالافتراضات المسبقة نفسها والتوجهات نفسها (الاقتصادية والاجتماعية والثقافية) التي كانت الثورة قادرة على الانخراط فيها وتدميرها»[١٤٥].

---

(144) Penzin, Alexei: "**The Soviets of the Multitude**", P. 82.

(145) Virno, Paolo: "**Do You Remember Counterrevolution?**", Trans.: Michael Hardt, in: Paolo Virno and Michael Hardt (eds.), *Radical*

ويمضي فيرنو فيؤكد خطورة الثورة المضادة انطلاقًا من كونها «تعيد، بطريقتها الخاصة، تفسير مجموعة الشروط المادية التي من شأنها أن تجعل العمل المأجور واقعًا ممكنًا مرة أخرى، وتختزل هذه الشروط إلى قوى إنتاجية مربحة من الناحية الرأسمالية. (وقد تم تسهيل هذه المهمة إلى حد ما في إيطاليا، على سبيل المثال، من خلال استخدام السجون ذات الإجراءات الأمنية المشددة). وعلاوة على هذا، فإن خطورة الثورة المضادة تتمثل في أنها تقلب الممارسات الجماهيرية ذاتها التي بدت وكأنها تشير إلى اضمحلال سلطة الدولة وظهور حكم ذاتي راديكالي، مما يؤدي إلى التحول إلى نوع من السلبية والانهزامية»(١٤٦).

ومن هذا يتضح مدى ارتباط الثورة المضادة بنقد فيرنو للرأسمالية، وقد أكد «سبنسر كول بيسويك» Spencer Cole Beswick أن الكثير من جوانب الثورة المضادة يمكن تحديدها في تغييرات محددة في الدولة بنظامها الرأسمالي، تلك التي تسيطر على كل جانب من جوانب المجتمع وتعيد تشكيل كل شيء من تنظيم العمل. ومن هنا تتضمن الدولة قمعًا عنيفًا لحركات اليسار وحركات التحرر الوطني، خاصة مع سيطرة الاقتصاد الليبرالي الجديد، الذي أنشأ نظام السجون الضخمة. ومن هنا فإن الكثير مما يصفه فيرنو بـ«الثورة المضادة» إنما يقع في صميم الليبرالية الجديدة، التي لا تقتصر أماكن نفوذها على الولايات المتحدة وحدها، وإنما تشمل كل بلدان أوروبا الغربية. ومن هذا المنظور تُعدُّ الليبرالية الجديدة بمثابة ثورة عالمية مضادة ضد الإمكانات الثورية التي كانت سائدة منذ الستينيات، كما تُعدُّ محاولة لاستعادة عصر متخيل من رأسمالية عدم التدخل، وخلق مجتمع جديد يقوم على أساس من التوجه المحافظ للسوق الحرة وعنف الدولة الكبير باسم القانون والنظام(١٤٧).

Thought in Italy: A Potential Politics, Minneapolis: University of Minnesota Press, 1996, P. 241.

(146) Ibid, PP. 241-242.

(147) Beswick, Spencer Cole: "**Love and Rage: Revolutionary Anarchism in the Late Twentieth Century**", *Ph. D. Dissertation in Philosophy,* Cornell University, Faculty of the Graduate School, (August 2023), PP. 9-10.

(ISSN: 2536 - 9555)

لكن لا يعني هذا أن فيرنو يتحسّر على زوال الكتلة الاشتراكية في روسيا وأوروبا الشرقية، على العكس من هذا، فكثيرًا ما أبدى فيرنو شعوره الدائم بالارتياح لسقوط تلك الأنظمة المؤسّسة على القمع الداخلي وعلى تمجيد العمل. لكن تظل المشكلة هي: كيف يمكن التعبير عن المجال العام الذي لم يَعُدْ مرتبطًا بالدولة؟ وما هي مؤسسات الجمهور؟(١٤٨).

وفي رأي فيرنو أن المجال العام للجمهور يمثل قوة طاردة رئيسية؛ بمعنى أنه لا يستبعد الوجود السلطوي المرتبط بالدولة فحسب، بل يستبعد أيضًا إعادة تشكيل «هيئات سياسية» وحدوية. وهنا يرفض فيرنو مفهوم هوبز عن الدولة التي تمثل الاتحاد الشمولي الوحدوي للشعب، ويعول على المؤسسات، والاتحادات، والجمعيات، التي تمثل أشكالًا جديدة من الديمقراطية غير التمثيلية، والتي تعطي تعبيرًا سياسيًا للتعاون الإنتاجي الذي يجسد في جوهره «العقل العام». أما عن أهمية هذه المؤسسات فتتمثل في أنها تنتج صراعًا مع الأجهزة الإدارية للدولة، بهدف تقويض صلاحياتها واستيعاب وظائفها. ومن هنا يمكن لهذه الموارد الأساسية نفسها في الرأسمالية المتأخرة– المعرفة، والاتصالات، وما إلى ذلك– أن يتم تحويلها إلى ممارسات سياسية لدى الجمهور(١٤٩).

ثانياً: الدروس المستفادة من فلسفة فيرنو

من الملاحظ أن انخراط فيرنو في الفلسفة قد ارتبط بمشاركته ومواقفه السياسية، ويؤكد على هذا عالم الاجتماع الفرنسي «ثيري باردينى» (Thierry Bardini) حيث يذهب إلى أن فلسفة فيرنو ترتبط ارتباطًا وثيقًا بخبراته المبكرة التي بدأت في أواخر الستينيات، عندما انضم إلى الحركة العمالية وأدى دورًا مهمًا في منظمة «القوة العمالية». وفي ضوء هذا اشتبكت أفكاره وتحليلاته السياسية بالنظريات النقدية على مدى العقود الماضية بوصفه مثقفًا منخرطًا في مشروع التحرر الذي بدأته الماركسية في الماضي(١٥٠). كما يذهب «ماكس هينينجر»

(148) Penzin, Alexei: "**The Soviets of the Multitude**", P. 90.
(149) Ibid, PP. 90-91.
(150) Bardini, Thierry: "**On Multitude and Beyond**, P. 206.

(Max Henninger) إلى أن فيرنو يتخذ نهجًا عمليًا Pragmatic بشكل ملحوظ في معالجته لتاريخ الأفكار، مستفيدًا من تراث الفلسفة من أجل صياغة تحليلات دقيقة للتحولات المعاصرة لنمط الإنتاج الرأسمالي في عصر ما بعد الحداثة. وربما يكون النهج النظري «للحركة ما بعد العمالية»، التي شارك فيها فيرنو، من بين أهم الأسس التي شكّلت آراءه وأطروحته العامة حول اللغة والسياسة. وفي ضوء هذا طوّر مفهومًا تاريخيًا وديناميًا للطبقة العاملة (الجمهور)، استنادًا إلى مفهوم «التكوين الطبقي» الذي تعيد تحولاتُه المستمرة– سواء على مستوى التنظيم المادي للعملية الإنتاجية أو على مستوى الذاتية السياسية– تحديد ملامح وأبعاد النضال السياسي والاجتماعي. وقد وجد هذان الجانبان من «الحركة ما بعد العمالية» تأكيدًا في صعود حركات الاحتجاج في إيطاليا عام ١٩٧٧[١٥١].

ومن ناحية أخرى، فإن أصالة فيرنو تتضح في إعادة صياغته المبتكرة للمفاهيم الماركسية، وقد أكد هذا «جون إيفينز كونلي» (John Evins Conley) حيث ذهب إلى أن كتابات فيرنو لا تتضمن تحديًا قويًا لعدد من المفاهيم الماركسية التقليدية فحسب، بل تتضمن أيضًا بعض جوانب الجدة والابتكار، خاصة إذا ما ركزنا على اثنين من المفاهيم الأكثر أهمية عند فيرنو، وهما «نمط الإنتاج» Mode of Production و«العقل العام» General Intellect. وتُعَدُّ إعادة صياغته المبتكرة والمعقدة لهذين المفهومين أكثر مساهماته أصالة وأهمية في الفكر السياسي والاجتماعي المعاصر[١٥٢]. وفي الإطار نفسه، تذهب «أريانا بوف» (Arianna Bove) إلى أنه إذا كان إسهام فيرنو يقع أساسًا في مجالات فلسفة اللغة والمنطق والأنثروبولوجيا، فإن أسلوبه مُكَثّف وصعب الفهم إلى حد ما،

---

(151) Henninger, Max: "**The Tradition of Critical Thought, Idle Talk and Curiosity, Language on Stage** P. P. 147, 178.

(152) Conley, John Evins: "**Capital Cynicism: Literature and Production in the Post-Fordist Era**", *Ph. D. Dissertation in Philosophy,* University of Minnesota, Faculty of the Graduate School, (November 2008), P. 8.

(ISSN: 2536 - 9555)

ومشحون سياسيًا، وكثيرا ما يكون كاشفًا[١٥٣]. وبالمثل يرى «فلاديمير ريزوف» (Vladimir Rizov) أن كتب فيرنو تحوي «نصوصًا مهمة ومبتكرة وراديكالية إلى حد ما، وتهدف في مجملها إلى تقديم وصف للطبيعة البشرية كشيء ليس منفصلًا أو لا يمكن سبر أغواره، ولكن كشيء يتجلى في الواقع في الخبرات الإنسانية المشتركة من خلال ملكة اللغة»[١٥٤].

كذلك يبدو فيرنو في أكثر من موضع من كتاباته متأثرا بـ«ألتوسير» الذي ذهب إلى أن الأيديولوجيا هي «**الدالّ**»، أو البنية الجوهرية الخاصة في تاريخ المجتمعات البشرية، وتتألف من مجموعة من الصور والتمثُّلات (أساطير، وأفكار أو تصورات)، وهي لا تُعبِّر عن علاقة الناس مع ظروف عيشهم، بل عن **الكيفية** التي يعيشون بها في تلك الظروف، علاوة على أنها تَفرِض نفسها عليهم وفقًا لعمليات يجهلون **مدلولها**[١٥٥]. وفي هذا الصدّد، يؤكد «جيرالد رونيج» (Gerald Raunig) أن ثمة ملامح وتأثيرات من التيارات الفرنسية المعاصرة في تفكير فيرنو، وإن كانت ملامح وتأثيرات غير واضحة دائمًا، ومع هذا فإن فلسفة فيرنو متجذرة في تلك النضالات العمالية التي حدثت في إيطاليا خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي– عندما كانت الاشتباكات والنضالات في المصانع الكبيرة تؤدي إلى مواجهات عملية ونظرية مع التحولات الجديدة في أنماط الإنتاج الرأسمالية[١٥٦].

ومن ناحية أخرى، فقد جاءت رؤية فيرنو تربط مشكلات اللغة بالفلسفة السياسية من خلال إقامة روابط وثيقة بينهما[١٥٧]. لكن إذا كان فيرنو لم يهتم إلى

---

(153) Bove, Arianna: "**Paolo Virno, Language and Political Action**", January 2018. At: (https://www.researchgate.net/publication/324587691)

(154) Rizov, Vladimir: "**Review of (When the Word Becomes)**", *Political Studies Review*, Vol. 14, No. 4, October 4, 2016, P. 572.

(155) Althusser, Louis: **For Marx**, trans.: Ben Brewster, London: Allen Lane, The Penguin Press, 1969, P. 231.

(156) Raunig, Gerald: "**Modifying the Grammar: Paolo Virno's Works on Virtuosity and Exodus**", P. 1.

(157) Ibid, P. 2.

حد كبير بالجوانب التحليلية للغة كوسيلة للتواصل الإنساني على غرار ما نزع إليه فلاسفة التحليل في بريطانيا، فإنه في المقابل حاول «إرساء فلسفته السياسية على منظور فينومينولوجي شامل Onto-Phenomenological للغة وعلى السمات البيولوجية للإنسان، رغم الصعوبات المتعلقة بإمكانية النظر إلى الجمهور كموضوع لغوي من ناحية، وكموضوع سياسي بشكل صريح تمامًا من ناحية أخرى. ولهذا كان تركيزه على القوى اللغوية والسياسية لدى الجمهور مفتقرًا إلى الأساس المتين؛ فما يتبقى من الطبقة العاملة في ظل النظام الرأسمالي العالمي ليس أنها حاملة لملكة اللغة، وإنما كونها موضوعًا للتدخلات السياسية الملموسة في مختلف اللغات والطرائق في قراراتها الحالية»(١٥٨).

كذلك فمن بين هذه الصعوبات التي تحيط بنظرية فيرنو السياسية في اللغة أنه «من الناحية السياسية والفلسفية، من المستحيل الانتقال من لغة العمل إلى فعل اللغة: فالملكة اللغوية لا تعبر أبدًا عن نفسها في فراغ حيوي طبيعي، ولكنها تتقيد في الواقع بالأفق النهائي للاستيلاء الرأسمالي على العمل». ومن هذا المنظور، فإن «المطلوب هو لغة ناقدة لأشكال العمل الحالية؛ وعلينا أن نركّز الانتباه على الحالات التي لا حصر لها من التبعية السياسية التي تؤدي اليوم إلى صراعات ومناقشات فعلية. فاللغة لا تقول أي شيء، ولا تحقق أي أهداف سياسية: وإنما المتحدثون فقط (السياسيون) هم من يفعلون ذلك، ودائمًا ما يكون هذا في سياق الصراع من أجل السيطرة على القدرات المادية والفكرية للجمهور»(١٥٩).

وفي ما يبدو، إن فيرنو تغافل عن مشكلة أساسية تتمثل في تأثير التقنية الحديثة على ملكة اللغة، وبالتالي تشويه الفعل السياسي، وهذا ما كشف عنه «ستيفن شافيرو» (Steven Shaviro) بقوله: على الرغم من أن أفكار فيرنو تقدم تحديًا لتمجيد هوبز وشميت وغيرهما لسلطة الدولة الحديثة، فإنه لا يقدم أي حلول للمشكلة الأكثر خطورة المتمثلة في خضوع الجمهور لسطوة الآلة وتراكم رأس المال(١٦٠). وقد تنبهت «جوزيبينا ميكيا» (Giuseppina Mecchia) أيضًا

(158) Mecchia, Giuseppina: "**Paolo Virno: From the Language of Labor to the Labor of Language**", P. 501.
(159) Ibid, P. 502.
(160) Shaviro, Steven: "**Innovation and Negation**", P. 320.

(ISSN: 2536 - 9555)

إلى هذا، حيث ذهبت إلى أن نظرية فيرنو في اللغة لا تقوم على أسس كافية لاعتمادها على إطار نظري لا يمكن اعتباره بمثابة تفسير مناسب تمامًا للضغوط والإكراهات والتقييدات التي تفرضها القوة والسلطة على أفعال الكلام. والسبب في هذا يتمثل في أن تراجعه عن العديد من المبادئ المتضمنة في نظريته منذ السبعينيات إلى أوائل الثمانينيات يمثل، من نواحٍ عديدة، جوانب لعدم كفاية فلسفته في اللغة، بما في هذا انخراطه المبكر في النضال السياسي. ومن هنا تظل نظرياته بحاجة إلى التركيز على حالات «التذويب السياسي» **(Political Subjectivation)**، التي من شأنها أن تؤدي باستمرار إلى قيام جدالات ومناقشات فعلية. فاللغة لا تقول شيئًا وليست بحد ذاتها أداة للفعل السياسي(١٦١).

لكن من الإنصاف الإشارة إلى أن فيرنو تعامل مع هذه المشكلات الجديدة في بعض كتبه المتأخرة، حيث يصوّر أشكال الحياة الحالية على أنها تمثل وجودًا شبيهًا بالوهم، سواء أكان ذلك بسبب عدم المبالاة السياسية، أو الإذعان للسلطة، أو بسبب انتشار «مجتمع المشهد» لوسائل الإعلام العالمية وثقافة المستهلك. فالخيارات التي تقدمها أنماط الحياة الاستهلاكية للجمهور، واكتناز السلع الضرورية وغير الضرورية، وما إلى ذلك، كل هذا يمثل تجسيدًا لحالة من الوهم، حيث يقوم المكتنزون أو الجامعون بتجميع المال والسلع طوال حياتهم وهي تمر من حولهم، بدلًا من أن يستخدمونها(١٦٢).

وخلاصة القول، إن فيرنو ينطلق من تركيزه على اللغة بوصفها ملكة خلاقة غير محدودة لدى الجمهور (الجنس البشري) لأداء إمكاناتهم الفكرية والتواصلية والسياسية الكامنة، رغم الصعوبات العديدة التي تحوط بنظريته السياسية في اللغة.

---

(161) Mecchia, Giuseppina: "**Paolo Virno: From the Language of Labor to the Labor of Language**", P. P. 491, 502.

(162) Virno, Paolo: **Déjà Vu and the End of History,** New York: Verso Books, 2015, PP. 54-55.

نتائـج البحـث

لعل محاور البحث قد انتهت بنا إلى عدة نتائج يمكن إيجازها في الآتي:

أولًا: انطلقت نظرية فيرنو في اللغة من الفكرة التي وضعها أرسطو والتي ينظر من خلالها إلى الإنسان بوصفه حيوانًا لغويًا وسياسيًا، وفي ضوء ذلك يؤسس لأفعال اللغة بوصفها أهم مسألة فلسفية– وهي أفعال تحدد في جوهرها الأدائي الخالص قدرة الجمهور على عبور الفجوة بين حالة الإمكانية وحالة الواقع، أو الانتقال من القدرة الكامنة على الفعل إلى إخراج الفعل إلى حيز الوجود والممارسة؛ وهو بهذا يبرهن على أن اللغة ممارسة سياسية في حد ذاتها، تتوسط بين الثوابت البيولوجية والمحددات التاريخية المتغيرة. ومن هذا المنطلق لا ينظر فيرنو إلى اللغة بوصفها «مَلكة نظرية» أو خاصية ثانوية مكتسبة وإنما بوصفها ملكة محايثة Immanent Faculty، وإمكانية طبيعية للجمهور.

ثانياً: أستندت الفكرة العامة لنظرية فيرنو في اللغة على فرضية مؤداها أنه لا يمكن فصل اللغة عن السياسة: فوجود اللغة هو دائمًا وجود سياسي، وهذا يعني أن اللغة تعيد خلق نفسها باستمرار، كما تشكّل على وجه التحديد دعامة الفعل السياسي، وهو الفعل القائم على الفكر المستمد من مفهوم ماركس عن «العقل العام». وهكذا فإن اللغة– في إطارها الأمثل– تجسيد للوجود الحقيقي أو الأصيل للإنسان. وفي ضوء هذا آثر فيرنو دراسة علاقة اللغة بالإنسان ضمن إطار أنثروبولوجي محدد، محاولًا البرهنة على هذه الفرضية وواضعًا في حسبانه فهم الطبيعة البشرية من خلال اللغة وحدها، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، سخَّر فيرنو فلسفته في اللغة لأهداف سياسية؛ فبينما انطلقت كتبه من التركيز بشكل واضح على اللغة منذ البداية، فإنها تضمنت العديد من الدلالات السياسية.

(ISSN: 2536 - 9555)

ثالثاً: نجح فيرنو، باعتماده على العديد من المصادر النظرية في توسيع منابع فكره لتشمل علماء السيميوطيقا والأنثروبولوجيا والفلاسفة من أوائل إلى منتصف القرن العشرين، وذلك بهدف إعادة تحديد العلاقة بين التاريخ والطبيعة الإنسانية المتمحورة حول اللغة «كقدرة فعلية»؛ ومن هنا يتأكد نزوعه إلى دراسة اللغة كما تتجسد في إمكاناتنا التاريخية ومنجزنا البشري الملموس، مهتمًا بما أسماه اللغة المتجسدة Embodied Language– التي يعني بها جسد اللغة وهي في حالة صيرورة the becoming flesh of language، وهو ما يعني في النهاية أن اللغة تتجسّد أساسًا في قدرتنا على التعبير والرفض وما إلى ذلك.

رابعاً: جاءت رؤية فيرنو للفعل مخالفة لما ذهب إليه العديد من الفلاسفة المعاصرين الذين سايروا أرسطو وعلى رأسهم أرندت التي فصلت بين مجالات العمل والفعل والفكر، وفي المقابل لا يمكن البحث عن الفعل السياسي عند فيرنو خارج مجال العمل بصفة عامة؛ لأن العمل العادل وغير الاستغلالي، والذي يجسد ماهية الإنسان إنما هو المبدأ التأسيسي للفعل السياسي ذاته. كذلك اتخذ فيرنو موقفًا نقديًا من نظريات الفلاسفة حول الدولة الحديثة، من هوبز إلى شميت، في ما يتعلق بالانتقال من حالة الطبيعة إلى حالة الدولة المدنية، بما في ذلك حكم صاحب السيادة (في النظرية السياسية المحافظة)، أو سيادة القانون (في النظرية السياسية الليبرالية)، انطلاقًا من حججهم بخصوص الطبيعة العدوانية المتأصلة في البشر.

خامساً: نجح فيرنو إلى حد كبير في نقد التصورات السابقة عليه حول مفهوم (المجتمع) من ناحية، ووضع مفهوم جديد يشمل أنماط حياة الجمهور، ويستهدف منه إعادة وضع منطق جديد لعلاقة الواحد بالكثرة، أو علاقة الفرد بالجمهور، وهي الثنائيات التي سادت تاريخ الفكر الفلسفي والسياسي منذ أرسطو، مرورًا بماركس وهيجل، وصولًا إلى فوكو، مع وضعه في الحسبان ثنائيات مهمة من

قبيل: الخوف والأمن، وانقسام الحياة إلى مجالات متميزة من العمل والسياسة والفكر وما إلى ذلك، وكان في هذا الجانب مجددًا إلى حد كبير.

سادساً: استطاع فيرنو– إلى حد كبير– أن يكشف عن قصور التصورات الجامدة للدولة عند هوبز وغيره من منظري السياسة الحديثة، انطلاقًا من العيوب الكامنة في هذه التصورات، وفي المقابل مال إلى وضع تصور اجتماعي مرن يكون المجتمع فيه هو النسيج الذي «يستوعب» و«يحتضن» و«يتوائم» فيه الجمهور أفرادًا وجماعات.

سابعاً: ثمة خيوط من الغموض وعدم الاكتمال تحيط بآراء فيرنو، بحيث يحق لنا أن نستنتج أن آراءه حول اللغة والسياسة لم ترق إلى درجة النظرية المتكاملة الأبعاد حول اللغة والسياسة، بسبب الصعوبات العديدة التي تحوط بأفكاره لدرجة لا يمكن وضعها في قالب أو توليفة فلسفية خاصة واضحة ومميّزة.

(ISSN: 2536 - 9555)

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المصادر (كتابات فيرنو مرتبة زمنياً وفقاً لتاريخ نشرها):

(أ) كتب كاملة.

1. Virno, Paolo: **Convention and Materialism: Uniqueness without Aura**, tr. Lorenzo Chiesa, Foreword: Giorgio Agamben, London: MIT Press, 2021 (1986).
2. _____: **When the Word Becomes Flesh: Language and Human Nature**, tr. Giuseppina Mecchia, CA: Semiotext(e), 2015 (2003).
3. _____: **A Grammar of the Multitude: For an Analysis of Contemporary Forms of Life**, tr. Isabella Bertoletti, James Cascaito, Andrea Casson, Foreword: Sylvère Lotringer, CA: Semiotext(e), 2004.
4. _____: **Multitude between Innovation and Negation**, tr. Isabella Bertoletti, James Cascaito, and Andrea Casson, Los Angeles, CA: Semiotext(e); Cambridge, MIT Press, 2008 (2004).
5. _____: **An Essay on Negation: For a Linguistic Anthropology**, tr. Lorenzo Chiesa, Calcutta, India: Seagull Books, 2018 (2013).
6. _____: **Déjà Vu and the End of History,** New York: Verso Books, 2015.
7. _____: **The Idea of World: Public Intellect and Use of Life**, London/Calcutta: Seagull Books, 2022.

(ب) أهم مقالات فيرنو المتصلة بموضوع الدراسة:

8. Virno, Paolo: "**Do You Remember Counterrevolution?**", Trans.: Michael Hardt, in: P. Virno and M. Hardt (eds.), *Radical Thought in Italy: A Potential Politics*, Minneapolis: University of Minnesota Press, 1996, PP. 241-258.

9. _____: "**Virtuosity and Revolution: The Political Theory of Exodus**", in: P. Virno and M. Hardt (eds.), *Radical Thought in Italy*, Minneapolis: University of Minnesota Press, 1996, PP. 189-209.
10. _____: "**Reading Gilbert Simondon (Transindividuality, Technical Activity and Reification)**", *Radical Philosophy*, No. 136, (Mar/Apr 2006, PP. 34-43.
11. _____: "**Dreamers of a Successful Life**", Trans.: Jared Beckerin, in: Sylvère Lotringer and Christian Marazzi (ed.), *Autonomia: Post-Political Politics*, Los Angeles: Semiotext(e), 2007, PP. 112-117.
12. _____: "**Natural-Historical Diagrams: The 'New Global' Movement and the Biological Invariant**", in: *The Italian Difference: Between Nihilism and Biopolitics*, ed.: Lorenzo Chiesa and Alberto Toscano, Melbourne: Repress, 2009, PP. 131-147.
13. _____: "**The Money of Language: Hypotheses on the Role of Negation in Saussure**" Trans.: Timothy Campbell, *Diacritics*, Vol. 39, No. 4 (Winter 2009), PP. 149-161.

ثانياً: مقالات ودراسات أكاديمية عن علاقة اللغة بالسياسة عند فيرنو.

1. Bardini, Thierry: "**On Multitude and Beyond: An Interview with Paolo Virno**", *Cultural Politics*, Trans.: Briankle G. Chang and Srinivas Lankala, Vol. 10, No. 2, (1 July 2014), PP. 206-225.
2. Beswick, Spencer Cole: "**Love and Rage: Revolutionary Anarchism in the Late Twentieth Century**", *Ph. D. Dissertation in Philosophy,* Cornell University, Faculty of the Graduate School, (August 2023).
3. Bianchi, Pietro: **The Word and the Flesh: Postworkerism and the Biopolitics of Language in Paolo**

(ISSN: 2536 - 9555)

Virno and Christian Marazzi, in: *Italian Thought Today (Bio-economy, Human Nature, Christianity)*, ed.: Lorenzo Chiesa, New York: Routledge, 2014, PP. 39-51.

4. Bove, Arianna: "**Paolo Virno, Language and Political Action**", January 2018. At: (https://www.researchgate.net/publication/324587691)
5. Clark, Samuel: "**Review of (A Grammar of the Multitude)**", *Political Theory*, Vol. 33, No. 5 (Oct., 2005), PP. 735-737.
6. Conley, John Evins: "**Capital Cynicism: Literature and Production in the Post-Fordist Era**", *Ph. D. Dissertation in Philosophy,* University of Minnesota, Faculty of the Graduate School, (November 2008).
7. Henninger, Max: "**The Tradition of Critical Thought, Idle Talk and Curiosity, Language on Stage (Three Essays by Paolo Virno)**" *Forum Italicum*, Vol. 40, No. 1, 2006, PP. 147-149.
8. Joseph, Branden W.: "**Interview with Paolo Virno**", Trans.: Alessia Ricciardi, *Grey Room*, No. 21, (Fall, 2005), PP. 26-37.
9. Lewis, Michael: "**Virno's Philosophical Anthropology**", *Journal of Italian Philosophy*, Vol. 1, 2018, PP. 131-182.
10. Mecchia, Giuseppina: "**Paolo Virno: From the Language of Labor to the Labor of Language**", *Annali d'Italianistica*, Vol. 32, 2014, PP. 491-504.
11. Penzin, Alexei: "**The Soviets of the Multitude: On Collectivity and Collective Work: An Interview with Paolo Virno**", *Mediations*, Vol. 25, No. 1 (Fall 2010), PP. 81-92.
12. Raunig, Gerald: "**Modifying the Grammar: Paolo Virno's Works on Virtuosity and Exodus**", *Artforum International*, Vol. 46, No. 5, (January 2007), PP. 1-4.
13. Righi, Andrea: "**A Biopolitical Multitude and Its Planet: Antonio Negri and Paolo Virno**", in: Idem:

Biopolitics and Social Change in Italy: From Gramsci to Pasolini to Negri, London: Palgrave Macmillan, 2011, PP. 137-172

14. Rizov, Vladimir: "**Review of (When the Word Becomes)**", *Political Studies Review*, Vol. 14, No. 4, October 4, 2016, PP. 571-572.

15. Shaviro, Steven: "**Innovation and Negation**", *Criticism*, Vol. 50, No. 2 (Spring 2008), PP. 319-325.

16. Tretyak, Artur: "**The Life of the Work: Virno's Reception of Arendt's Political Theory**", *Russian Sociological Review*, Vol. 17, No. 4, 2018, PP. 158-173.

17. Valensi, E.A.M.: "**Doing Philosophy with Paolo Virno**", *Multitudes*, Vol. 56, No. 1, 2014, PP. 167-174.

ثالثاً: المراجع (كتب عن اللغة والسياسة وقضايا أخرى ذات صلة).

(أ) مراجع باللغة الإنجليزية.

1. Adorno, Theodor: **The Culture Industry: Selected Essays on Mass Culture**, London & New York: Routledge, 1991.
2. Althusser, Louis: **For Marx**, trans.: Ben Brewster, London: Allen Lane, The Penguin Press, 1969.
3. Bunnin, Nicholas and Jiyuan Yu: **The Blackwell Dictionary of Western Philosophy**, Oxford: Blackwell Publishing Ltd, 2004.
4. Cassirer, Ernst: **The Philosophy of Symbolic Forms**, Vol. I (Language), tr., by: Ralph Mankeim, New Haven, CT: Yale Univ. Press, 1955.
5. Habermas, Jürgen: **The Liberating Power of Symbols: Philosophical Essays**, trans. Peter Dews, Cambridge: The MIT Press, 2001.

(ISSN: 2536 - 9555)

6. Jackendoff, Ray S.: **Patterns in the Mind Language and Human Nature**, New York: Basic Books, 1994.
7. Jameson, Fredric: **Postmodernism, or The Cultural Logic of Late Capitalism**, Durham, NC: Duke Univ. Press, 1991.
8. Khoo, Justin and Rachel Sterken (Eds.) **The Routledge Handbook of Social and Political Philosophy of Language**, New York and London: Routledge, 2021.
9. Kotsko, Adam: **Žižek and Theology**, London: T & T Clark, 2008.
10. Kymlicka, Will, and Alan Patten (Eds.): **Language Rights and Political Theory**, Oxford and New York: Oxford Univ. Press, 2003.
11. Montag, Warren: **Althusser and His Contemporaries**, Durham and London: Duke University Press, 2013.
12. Moya, Carlos J.: **The Philosophy of Action: An Introduction**, Cambridge: Polity Press, 1990.
13. Oakeshott, Michael: **Rationalism in Politics**, New York: Basic Books, 1962.
14. Pettit, Philip: **Made with Words: Hobbes on Language, Mind, and Politics**, Princeton, NJ: Princeton University Press, 2008.
15. Scholar, Research: "**Biopolitical Philosophy of Hardt and Negri: A Critical Study**", *M. A. Thesis in Philosophy,* University of Delhi, 2020.

(ب) المراجع العربية والمترجمة إلى العربية.

١٦. آرندت، حنّة: **بين الماضي والمستقبل؛ ستة بحوث في الفكر السياسي**، ترجمة: عبد الرحمن بشناق، مراجعة زكريا إبراهيم، بيروت: طبعة دار جداول للنشر والتوزيع، ٢٠١٤.

١٧. الجزيري، مجدي: **التنوير والحضارة عند هيردر**، الإسكندرية: دار الوفاء للطباعة والنشر، ط. ٣، ٢٠٠٤.

١٨. _____: **السيميوطيقا وفلسفة اللغة عند كاسيرر**، الإسكندرية: طبعة دار الوفاء للطباعة والنشر، ٢٠٢٠.

١٩. _____: **المتشابهات الفلسفية لفلسفة الفعل عند فتجنشتين**، القاهرة: دار آتون للنشر والطباعة، ١٩٨٦.

٢٠. الشريف، حمدي: «**الدلالات الرمزية لفلسفة الفعل عند حنَّه أرندت**»، منصة معنى الثقافية، ١١ يوليو ٢٠٢١.

٢١. العيادي، عبد العزيز: **فلسفة الفعل**، صفاقس: دار نهى للطباعة والنشر، ٢٠٠٧.

٢٢. بريسول، أحمد: «**القالبية والبعد الذريعي للغة**»، مقال منشور ضمن: مجلة عالم الفكر، العدد ١٩١، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون، يوليو– سبتمبر ٢٠٢٣.

٢٣. بيراردي، فرانكو (بيفو): **الروح في العمل من الاستلاب إلى الاستقلال الذاتي**، ترجمة: أحمد حسان، القاهرة: أقلام عربية للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠.

٢٤. دي سوسور، فرديناند: **علم اللغة العام**، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، مراجعة: مالك يوسف المطلبي، بغداد: دار آفاق عربية، ١٩٨٥.

٢٥. دى كرسبني، أنطونى، وكينيث مينوج (المحرران): **من فلاسفة السياسة في القرن العشرين**، ترجمة: نصَّار عبد الله، الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ٢٠٠٠.

(ISSN: 2536 - 9555)

٢٦. عبد اللطيف، عماد: "**اللغة والثورة: نقد الخطاب السياسي في أعمال جورج أورويل**»، مجلة نزوى، العدد ٦٩، يناير ٢٠١٢.

٢٧. غبريال، كمال: **العولمة وصعود الحداثة**، القاهرة: دار دَوّن للنشر والتوزيع، ٢٠١٠.

٢٨. فتجنشتين، لودفيج: **بحوث فلسفية**، ترجمة: عزمي إسلام، مراجعة: عبد الغفار مكاوي، الكويت: وكالة المطبوعات، ١٩٩١.

٢٩. فريري، باولو: **تعليم المقهورين**، ترجمة: يوسف نور عوض، بيروت: دار القلم، ١٩٨٠.

٣٠. فيركلف، نورمان: **اللغة والسلطة**، ترجمة: محمد عناني، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦.

٣١. كاسيرر، أرنست: **اللغة والأسطورة**، ترجمة: سعيد الغانمي، أبوظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (مشروع كلمة للترجمة)، ٢٠٠٩.

٣٢. _____: **مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية**، ترجمة: إحسان عباس، مراجعة: محمد يوسف نجم، بيروت: دار الأندلس، ١٩٦١.

٣٣. كافي، فريدة: «**اللغة والسياسة في فكر نعوم تشومسكي**»، حوليات جامعة قالمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد ٢٠، ٢٠١٧.

٣٤. مزيد، بهاء الدين محمد: **اللغة والثقافة والإدراك: تأصيل العلاقة، مع الإشارة إلى بعض تجلّياتها وثمراتها**، مجلة أبوليوس (كلية الآداب واللغات بجامعة محمد الشريف مساعدية– الجزائر)، المجلد ٨، العدد ١، ٢٠٢١، ص ص. ١٠–٣٤.

٣٥. هارت، مايكل، وأنطونيو نيغري: **الإمبراطورية: إمبراطورية العولمة الجديدة**، ترجمة: فاضل جتكر، الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٢.

٣٦. _____: **الجمهور: الحرب والديمقراطية في عصر الإمبراطورية**، ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠١٥.